في ظلال القرآن

الجزء الثامن

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

فى ظلال القرآن

الجزء الثامن

بقلم

سيّد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية

عيسى البابى الحلبى وشركاه

سورة الأنعام





« وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى ، وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ـ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ـ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَلِيَرْضَوْهُ ، وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ .

« أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ؟ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلًا ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ـ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ـ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ * وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ * وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ .

« أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ، وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا

بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَمَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ . اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ * فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ . كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ، يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ؛ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ : رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ، وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ؛ قَالَ : النَّارُ مَثْوَاكُمْ ، خَالِدِينَ فِيهَا ـ إلا مَا شَاءَ اللَّهُ ـ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ؛ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ؟ قَالُوا : شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ؛ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

« وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ * إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * قُلْ : يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » .

هذا الدرس الذى يبدأ به هـذا الجزء ، امتداد للحديث عن المكابرين ، الذين لا تـكفيهم آيات الله المبثوثة فى تضاعيف الـكون ، يمرون عليها وهم غافلون،محجوبون عن دلالتها الناطقة بقدرة الخالق الواجب الوجود ؛ ولا تـكفيهم آية القرآن تتلى عليهم ، وفيها وحـدها بلاغ ؛ فإذا هم بعد هذا كله يطلبون من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ معجزة من المعجزات المادية ، التى علم الله أن البشرية ـ وقد شبت عن الطوق ـ لم تعد فى حاجة إليها ؛ وقدر لهذه البشرية أن تستخدم إدراكها ، وأن تفتح بصيرتها ، وأن تتدبر آية من نوع جديد تليق بمرحـلة النضوج ..

لقد طلبوا معجزة مادية ، روى ابن جرير (بإسناده عن محمد بن كعب القرظى) قال : كلم رسول الله ـصلى الله عليه وسلمـ قريش فقالوا :يامحمد تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى ، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة ، فأتنا من الآيات حتى نصدقك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أى شىء تحبون أن آتيكم به ؟» قالوا : تجعل لنا الصفا ذهبا ، فقال لهم : « فإن فعلت تصدقونى»؟ قالوا : نعم والله لئن فعلت لنتبعك أجمعين ، فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو ، فجـاءه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال له : ماشئت . إن شئت أصبح الصفا ذهبا ، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنهم . وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم .فقال رسول الله صلى اللهعليه وسلم : « بل يتوب تائبهم » فأنزل الله تعالى : وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آيةليؤمنن بها قل : إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون؟ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون. ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ماكانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله . ولـكن أكثرهم يجهلون »[1]

وهذا الدرس الجديد هو امتداد للحديث عن القوم،الذين يطلبون خارقة مادية،وخوارق الوجود حولهم حيثما امتد منهم البصر ، وحيثما تلفت منهم القلب.ولـكنهم عن ذلك كله محجوبون

***

(١) الحديث مرسل

« ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا ـ إلا أن يشاء الله ـ ولكن أكثرهم يجهلون » .

فإن قوما يمرون على تلك الآيات الكونية التي استعرضها السياق قبل ذلك في السورة كلها، فلا تتفتح لها بصائرهم،ولا تمس إيقاعاتها قلوبهم ، ولا تتحرك لها مشاعرهم ومداركهم ؛ ثم يتلى عليهم هذا القرآن يلفتهم إلى تلك الآيات ، ويكشف لهم عن دلالتها التي لا تجحد ؛ فلا يؤثر فيهم شيئا .. إن قوما على هذا النحو من الاستغلاق والموات لغير مهيأين أصلا للإيمان ، مهما يأتهم من الخوارق ماديها وروحيها على السواء. « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا » أي عيانا ومواجهة « ما كانوا ليؤمنوا » فليس الذي ينقصهم هو الآيات ـ فأمامهم منها الكثير كلها خارق وكلها معجز لمن يتدبره بالقلب البصير ـ إنما ينقصهم هذا القلب الحي الذي يتلقى ويتأثر ويستجيب ، وتنقصهم البصيرة التي ترى وتدرك وتستفيد . ولو كانت الخوارق تكفل إيمان من يشاهدونها جميعا ، لما كفر أحد ممن جاءتهم الخوارق من قبل . إنما الإيمان مرهون بالبصيرة المفتوحة ، والقلب الشاعر، والحس البصير .

لذلك لم يشأ الله ـ وهو العليم الحكيم ـ أن يأتيهم بالآية التي طلبوا ، فهو يعلم أنهم غير مهيأين للإيمان أصلا : « ما كانوا ليؤمنوا » ولو جاءتهم الخوارق كلها ، وقد مثل لها بتنزيل الملائكة ، وتكليم الموتى ، وجمع كل الأشياء تشهد مواجهة وعيانا « إلا أن يشاء الله » .. فالله قادر على أن يقيم سنة مكان سنة ، وأن يبدل ناموسا بناموس . والسنة الجارية أن من كان هذا شأنهم لا يؤمنون مهما تضافرت الآيات . والنص يقرر استحالة إيمانهم بناء على تلك السنة الجارية ؛ ولكنه يقرر للمشيئة حريتها في أن تغير السنة وتبدل الناموس حين يشاء الله . وهذا وضع آخر مقدر غير الوضع الواقع الذي يقتضي الاستحالة ، لأن مشيئة الله في جريان السنة القائمة تقتضي هذه الاستحالة .. « ولكن أكثرهم يجهلون » .. يجهلون السنة الجارية ، ويجهلون النتيجة المحتومة ، ويجهلون أن الآيات لا تخلق الإيمان، إنما هو القلب المفتوح الذي يشهد ويتأثر ويستجيب .

« وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا ، شياطين الإنس والجن، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه، فذرهم وما يفترون؛ ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، وليقترفوا ما هم مقترفون » ..

فما دامت هنالك قلوب من ذلك الطراز ، مغلقة لا تتفتح لآيات الله المبثوثة فى تضاعيف الكون ، ولا تتنبه إلى دلالتها الواضحة ، حتى حين تنبه إليها على أيدى الرسل ، وما معهم من كتاب الله .. ما دامت هنالك هذه الحالات ، فكذلك كان لكل نبي عدو يناهضونه،ويحاربون دعوته ، لأن هذا من ذاك ، فالاستغلاق عن الإدراك والاستجابة يجانسه العداء والمناهضة .

« وكذلك جعلنا لكل نبي عـدوا شياطين الإنس والجن » .. فأما شياطين الإنس فهم معروفون لنا . إنهم أولئك الأشرار المعتدون المجاوزون للحد ، الذين خلت قلوبهم من الاستعداد للتأثر بالحق والاستجابة له . وأما شياطين الجن فعلمنا بهم مستفاد من مثل هذا النص لا يتعداه ، وهم غيب من الغيب الذى اختص به الله ، ولا سبيل لنا إليه إلا بالقدر الذى يكشف لنا عنه نص من هذه النصوص،فنعرفهم منه بأعراضهم التى يدل عليها لا بذواتهم وماهياتهم التى لم يشر إليها. ومن هذا النص نعرف أنهم يوحون لشياطين الإنس– أى يوسوسون –بالقول المزخرف الذى يغر ويخدع ، إما ليخدعوا شياطين الإنس هؤلاء ، وإما ليقوم هؤلاء بخداع قومهم من الإنس بما وصل إليهم من وسوسة وإيحاء . أما كيف يوحون ويوسوسون فذلك مالم يبينه النص ، ولا سبيـل لنا إلى تصور كيفيته من ذات أنفسنا ، شأنه شأن سائر الغيبيات ؛ وإن كان علينا التصديق بوقوعه كالشأن فى سائر الخبريات .

لقد جعل الله لـكل نبي عدوا هم هؤلاء الشياطين من الإنس والجن . جعلهم يوم اقتضت سنته وجرت مشيئته بأن القلوب التى لا تتفتح لآيات الله الـكونية ، ولا تستمع إلى آيات الله المتلوة ، لا يمكن أن تؤمن بعد ذلك مهما جاءها من الخوارق والمعجزات ، فتتصدى للرسل إذن بالمناهضة والعداوة ، بمقتضى تنكرها للإيمان .. هؤلاء الشياطين يوحى بعضهم إلى بعض مزخرف القول وخادعه — والمنتظر أن يكون البعض الموحى هو شياطين الجن والبعض الموحى إليه هو شياطين الإنس — فشياطين الإنس مهيأون لأن يستمعوا وأن يستجيبوا لشياطين الجن، بما أنهم غير مهيأين للاستماع إلى رسل الله ،وغير مهيأين للاستجابة إلى هدى الله.. «ولو شاء ربك ما فعلوه » .. لا هؤلاء يوحون ولا أولئك يستجيبون .. فلو شاء لجرت مشيئته بغير تلك السنة ، ولتبدلت الأسباب والمسببات . ولـكنه شاء أن يترك للطبائع اتجاهاتها ، وأن يترك من يغلقون بصائرهم عن الهدى يضلون « فذرهم وما يفترون » .. فلا تحفلهم ولا تحفل مفترياتهم ، ودعهم إلى هذه المفتريات يشتغلون بها ويلهون .. «ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة»

وليقع الإصغاء إلى القول المزخرف الخداع من أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة. وهي الحق اليقين. فهذه الأفئدة التي لا تؤمن بالحق تكون مهيأة للإصغاء إلى الباطل « وليرضوه » ويطمئنوا إليه ، « وليقترفوا ما هم مقترفون » من عداء للرسل ، ومن وسوسة واستجابة ، ومن افتراء واشتغال ، ومن تكذيب بالآخرة وإصغاء إلى الضلال .

إن هذه النصوص التي سلفت تكشف لنا عن طبيعة الهدى وطبيعة الضلال : إن الهدى يبدأ تفتحا في القلب للتأمل والإدراك والاستجابة لما في الوجود من آيات كونية ، ولما في الرسالات من توجيه وإنارة . وإن الضلال يبدأ استغلاقا في القلب ، فيمر على الآيات غافلا أو يتلقاها جاحدا ، ومن ثم لا تقنعه الخوارق ولا المعجزات .

ثم تمضي سنة الله في طريقها ، فإذا التفتح للآيات يتبعه الإيمان والاهتداء ، وإذا الاستغلاق دونها يتبعه الكفر والضلال . ثم إذا الكفر يناهض الإيمان ، والضلال يعادي الهدى ، والشيطان يجد مجاله في القلوب التي أغلقت دون آيات الله وهداه ، فيتخذ منها أوكارا ، ويوسوس لها بالقول المزخرف ، والخداع الباطل ، فإذا هي أدوات لنشر الشر والفساد .

تلك هي سنة الله ، جرت بها مشيئته ، مختارة غير مقيدة فيما تشاء . ولو شاء لأجرى غير هذه السنة ، وإنه ليجري غيرها حين يشاء . ولكن النصوص تقرر أن السنة التي شاءها هي الجارية ، وأنها تنشئ آثارها حتما مقضيا ، كما شاء الله .

* * *

وإذ ينتهي السياق من بيان السنة الجارية ، التي بمقتضاها جعل الله لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا . يلتفت إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهو يلقى من أعدائه ما يلقى ، ليقرر أن الله هو وحده الحكم في هذه الخصومة بينه وبين أعدائه ، وأنه لن يتخذ حكما إلا الله ، يشهد له بالنبوة ، ويشهد لرسالته بالصدق ، ويمضي حكمه كما يشاء ، بلا معقب على كلمته ولا مناهض لما يشاء .

« أفغير الله أبتغي حكما ، وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا ؟ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » . .

لقد طلبوا خارقة معينة ليصدقوا برسالة محمد — صلى الله عليه وسلم — ولقد عادوه كما جرت سنة الله أن يكون لكل نبي عدو شياطين الإنس والجن . فليقرر لهم الرسول أنه لن يبتغى حكما بينه وبينهم إلا الله ، مستنكرا أن يتخذ غيره حكما ؛ وهو منزل الكتاب الذى يطلبون خارقة ليصدقوا بنزوله . وقد أنزله إليهم مفصلا غير مبهم ولا غامض .

يوجه الله الرسول ليقول لهم هذا القول ؛ ويستنكر أن يتخذ غير منزل الكتاب حكما فى شأن الكتاب . ثم يقول له : « والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق » .. ليخبره أن هناك من أهل الأرض من يعلم بصدق هذه الواقعة ، وبحقيقة هذا الكتاب ، وأنه منزل من الله ، بالحق فى طبيعته وفى أحكامه ، فليست هذه الواقعة مجهولة من بعض أهل الأرض — وهم أهل الكتاب — الذين يجدون صدقه فيما يعلمون من الكتاب . « فلا تكونن من الممترين » فيخالجك الشك حين تراهم ينكرون ويكذبون ، وهم كاذبون .

وليس من الضرورى أن يكون أى شك قد خالج الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى صدق الوحى بالكتاب أمام إنكار المنكرين ، ومنهم أهل الكتاب المعروف أنهم يعرفون . فهذا النهى إنما هو زيادة فى التوكيد ، وتثبيت لليقين ، كى لا يجول فى خاطره طائف من التردد فى هذا اليقين .

ويعقب على الإخبار بمعرفة أهل الكتاب بأن هذا الكتاب منزل على محمد ، متلبسا بالحق ممتزجاً به ؛ وعلى النهى عن الامتراء والشك فى هذه الحقيقة . . يعقب على هذا بالتوكيد الواقع أن كلمة الله قد تقررت ، فلا مبدل لها ، ولا معقب عليها ، وهو الحكم الأخير :

« وتمت كلمة ربك — صدقا وعدلا — لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم » ..

وهو تعقيب ينهى الموقف ، ويقطع الجدل ، ويقر اليقين . إن كلمة الله هى الفاصلة ، ولقد تمت وانتهت إلى غايتها . تمت بهذا الكتاب الذى أنزله الله بالحق على رسوله . تمت فتقرر على أساسها منهج الحياة ، واتجاه الأمور . تمت صدقا لا يلابسه باطل ، وعدلا لا يمازجه ظلم . « لا مبدل لكلماته » فليس هنالك من قوة تغير عليه ، وليس هنالك من كلمة غير كلمته . « وهو السميع العليم » الذى يسمع ما يقال ، ويعلم حقيقته ؛ ويقضى عن معرفة وعلم بالصدق والعدل ، قضاء لا راد له ولا معقب عليه .

إنه التعقيب الحاسم الذى ينهى الجدل ، ويصدر الحكم ، ويقف عنده المتخاصمون مستسلمين . .

لقد تمت كلمة ربك . ووضح الحق ، وبطل الجدال ، وتبين اليقين . فأما كلام الناس ـ أكثر الناس ـ فهو قائم على الظن العائم لا على اليقين الجازم ، فالحقائق محجوبة عن الناس ، ومداركهم البشرية لا تؤدى إلى علم مستيقن ، ما لم تهتد بكلمات الله ، والقليلون هم المهتدون . ولو أطعت الكثرة التى تخبط فى عالم الظن لأضلوك فى التيه الذى هم فيه :

« وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » .

وهكذا يكشف القرآن الكريم عن الطبيعة الغالبة فى البشر . إن معظمهم يخرص ويحدس ويخمن ، ولا ينطق عن علم ، لأنهم يتبعون الظن العائم الغامض ولا يدققون ليصلوا من الظن إلى اليقين . . إن طلب الحق متعب ، والكثيرون لا يصبرون على مشقة البحث والتمحيص . وإن الصبر على الحق متعب، والكثيرون يروغون من حمله ويحتمون بتيه الظنون . وإن الحق لا يبلغه الإنسان إلا بهدى الله ، ولا يصبر عليه إلا بالاتصال بالله ، وقليلون هم الذين يسلكون هذا الطريق .

من أجل ذلك يقيم الإسلام نظامه على شريعة الله الثابتة التى لا تتبع أهواء الناس، الحقة التى لا تتبع ظنون المتخرصين ؛ ويجعل التشريع ابتداء لله العليم بالحق ، ليصونه من تحكم الكثرة التى تخرص وتتبع الظن ، ويدع للناس أمور الدنيا العملية ، التى لا تتعلق بالمبادىء التشريعية ، لأنها جزئيات لا يضر الخطأ فيها والانحراف ، إلا ضررا مؤقتا يزول مع التجارب . فأما أسس الحياة الكبيرة ، فهى موكولة لله الحكيم الخبير .

* * *

والنتيجة القريبة للكشف عن طبيعة البشر الغالبة ، أن يكون الحكم فى أمور الحياة لله ، الذى يعلم الحق ويقضى به ؛ ويعلم الضالين والمهتدين من عباده .

« إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » . .

ولقد كان المشركون يجادلون المسلمين فى أمور كثيرة مما تجرى به الحياة اليومية . وكان من هذه الأمور مسألة الذبائح ، ما ذكر اسم الله عليه وما لم يذكر ، ما ذبح باسم الله أو ذبح باسم غيره من الآلهة والأصنام والكواكب ، ماأهل به لله وما أهل به لغير الله ..

والأمر فى نظر الإسلام لم يكن أمر لحوم تؤكل أو لا تؤكل . إنما كان أمر العقيدة . أمر التوحيد الخالص الذى لا يلابسه شرك . التوحيد الذى يجب أن يصبغ كل خواطر المسلم وكل اتجاهاته وكل تصرفاته . وأمر الشرك الذى يجب أن تغسل منه المشاعر والعادات والتقاليد فلا يبدو له ظل فى شىء جل أو هان من أمور الحياة . ومظهر التوحيد أو مظهر الشرك يمكن أن يتبدى فى الهين من شؤون الحياة اليومية ، كما يتبدى فى الكليات الاعتقادية سواء بسواء . فالقلب البشرى الذى يشارك فى الجليل هو الذى يشارك فى الهين ؛ ومن هذا النبع تنبثق الكليات والجزئيات سواء .

لذلك يستطرد السياق من الحديث عن الضلالة والهدى ، والحديث عن حكم الله وحكم الناس فى أمور الحياة . . يستطرد من هذه الكلية الكبيرة فى العقيدة ، إلى جزئية من الجزئيات التطبيقية فى هذا المجال ، يرتبها ترتيبا مباشرا على تلك الكلية الأولى ؛ ويعقب عليها بأنها من مقتضيات الإيمان بالله :

« فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين » . .

كلوا مماذكر اسم الله عليه ، ولو كان مما يحرمه غيركم على نفسه،اتباعا لتخرصات وظنون ، وإطاعة لتقاليد الجاهلية وأوهامها التى لا ترتكن على أساس مفهوم .

« ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه . وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم . إن ربك هو أعلم بالمهتدين » ..

فهو سؤال للاستنكار . استنكار أن يمتنع المسلمون من طعام ذكر اسم الله عليه ، بعد أن لم يعد لديهم شك أو غموض فيما أحله الله لهم وما حرمه عليهم ، فقد فصل لهم ما حرم عليهم من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به — إلا أن يضطروا إلى شىء من هذه المحرمات فهى لهم عندئذ حلال بقدر الحاجة وفى حدودها[1] — هذا هو حكم الله لهم ،

(١) خلاف فقهى حول القدر المباح ،أهو الذى يحفظ الحياة ، أم الذى يشبع ؟

وعليهم أن يتبعوه وحده ، وألا يلقوا بالا إلى أوهام المتخرصين وأصحاب الظنون . « وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم » فهم يتبعون هذه الأهواء ، ويفتون بها الناس ، فيضلون أنفسهم ويضلون غيرهم ؛ وإن الله ليعلم من يتبعون الحق ومن يجاوزونه إلى الباطل : « إن ربك هو أعلم بالمعتدين » ومجاوزة الحق اعتداء ، وتحريم الحلال اعتداء كتحليل الحرام على السواء .

والتكملة الطبيعية للأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه — ولو كان مما حرمه على أنفسهم ناس من أهل الظنون والأهواء — هى النهى عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه — ولو كان مما يحله قوم لأنفسهم بتعلات يجادلون حولها المسلمين[1] — ولكن النهى عن هذه الجزئية يتقدمه نهى عام عن الإثم — ظاهره وباطنه — فترتبط هذه الجزئية بذلك النهى العام ؛ وتأخذ منه صفتها وهى أنها إثم داخل فى عموم الإثم الكبير ؛ ثم يعقب عليها بأن اتباع المشركين فيها شرك يلحق التابعين بالمتبوعين :

« وذروا ظاهر الإثم وباطنه . إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » .

وظاهر الإثم هو المكشوف منه المعلن المعروض ، وباطن الإثم هو المستور منه الخفى المتوارى أو هو الإثم كلية عبر عنه بظاهره وباطنه لتجسيمه وتشخيصه ؛ كأنه خلق محسوس له ظاهر وباطن — على طريقة القرآن الكريم فى التصوير والتشخيص — على أية حال هو الأمر بترك الإثم كلية . والتهديد بأن الجزاء عليه مؤكد ، وبأن الجزاء عليه سيكون سيئا من نوعه ، حتى لكأنه ذات الإثم الذى كانوا يقترفون ، يرد عليهم ويؤخذون به عن يقين .

« ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » .. « وإنه لفسق » .. وإنه لخروج عما شرع الله وما أحله ، فهذا الوصف كأنه تعليل للنهى ، أو هو زيادة فى التنفير من أكله ، ببيان طبيعته وصفته . والمسألة — كما قلنا — هى مسألة عقيدة التوحيد ، التى تقتضى المسلم التوجه فى الصغيرة والكبيرة إلى

---

(١) عن ابن عباس كانوا يقولون : ما ذبح الله — ويعنون الميتة — فلا تأكلونه ، وما ذبحتم أنتم فتأكلونه ؟ !

الله وحده ؛ والبعد عن الشرك فى كل مظاهره ، سواء مايتعلق بكليات العقيدة ، أو بجزئيات الحياة . ثم كشف للمصدر الذى يمد المشركين بمادة الجدل حول هذه المسائل مع المسلمين . . إنه الشياطين الذين يوسوسون لأتباعهم فيجادلون . فهو إيحاء الشيطان إذن فى مقابل هدى الله . وهو الشرك إذن فى مقابل توحيد الله . والقلب إما أن يوحد الله فلايتبع أمرا ولا وحيا سواه ، وإما أن يطيع المشرك فيستوى التابع والمتبوع : « وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » .. يستوى أن تكون هذه الطاعة فى كليات العقيدة ، أو فى جزئية من السلوك اليومى الذى تطبق فيه العقيدة . . وياله من حكم لايقبل الهوادة ، ولا مجال فيه للتأويل ، وهو مؤكد بكل طرائق التوكيد : « وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » .

وهذا التعقيب يوحى بأن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه يعد شركا إذا وقع طاعة للمشركين ، فأما إذا نسى المسلم أن يسمى ، أو ترك التسمية باعتقاد أنها غير واجبة ـ بل مستحبة فقط ـ وليس اقتداء بالمشركين ، فإن وصف الشرك لا ينطبق عليه فى هاتين الحالتين . . وفى المسألة خلاف فقهى حول حل الطعام وحرمته يطلب بالتفصيل فى كتب الفقه [١] .

* * *

ثم تصوير لطبيعة الكفر وطبيعة الإيمان ، يكشف عن سبب تشبث الكافرين بما يعملون :

« أو من كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون . وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون . وإذا جاءتهم آية قالوا : لن

---

(١) هناك ثلاثة أقوال :

الأول : لا تحل الذبيحة التى يترك ذكر اسم الله عليها سواء كان الترك عمدا أو سهوا . وهو محكى عن ابن عمر ونافع مولاه ، وعامر الشعبي ومحمد بن سيرين . وهو رواية عن مالك ورواية احمد بن حنبل .

الثانى : أن التسمية ليست شرطا بل هى مستحبة وتركها عن عمد أو نسيان لا يضر . وقد حكى هذا عن ابن عباس وأبى هريرة وعطاء بن أبى رباح . وهو مذهب الشافعى وأصحابه ، ورواية عن احمد ابن حنبل ، ورواية عن مالك .

الثالث : أن ترك التسمية نسيانا لايضر أما عمدا فلا تحل : وهو محكي عن على وابن عباس وسعيد ابن المسيب وعطاء وطاووس والحسن البصرى وأبى مالك عبد الرحمن بن أبى ليلى وجعفر بن محمد وربيعة ابن أبى عبدالرحمن . وهو المشهور من مذهب أحمد بن حنبل ، وهو قول أبى حنيفة وأصحابه .. ونحن نختار هذا الرأى الأخير . .

نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتى رسل الله . الله أعلم حيث يجعل رسالته . سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله ، وعذاب شديد بما كانوا يمكرون . فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » . .

إن الكفر موت ، وإن الإيمان حياة . إن الكفر ظلمة ، وإن الإيمان نور . إن الكفر ضيق وعسر وقلق ، وإن الإيمان انشراح ويسر وطمأنينة فى الصدور .

إن الكفر انقطاع عن منبع الحياة الأزلية الخالدة التى لا تفنى ولا تغيض فهو موت . وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة فى الكون فهو موت . وجفاف من نداوة الإيمان وبشاشته وتناجه فهو موت . وفناء فى هذه الحياة الدنيا بلا تطلع للحياة الباقية فهو موت . وتعطيل للمشاعر والمدارك والحواس عن التأثر والاستجابة فهو موت . وإن الإيمان اتصال واستمداد ونداوة وامتداد وفاعلية واستجابة فهو حياة بكل معانى الحياة .

إن الكفر تغطية وحجب للروح عن التطلع والاطلاع فهو ظلمة . وختم على الجوارح أن ترى وتسمع وتحس فهو ظلمة . وتيه فى الطرق المتعرجة وضلال فهو ظلمة . . وإن الإيمان تفتح ورؤية وإدراك واستقامة على الطريق فهو نور بكل مقومات النور .

إن الكفر انكماش وتصلب وتحجر فهو ضيق . وشرود عن الطريق السوى الواصل فهو عسر . وحرمان من الاطمئنان إلى القوة الكبرى فهو قلق .. وإن الإيمان انشراح ويسر وطمأنينة ترحم هذا المخلوق الإنسانى الضعيف .

وما الكافر ؟ إن هو إلا نبتة ضالة لا وشائج لها ولا جذور ؟ إن هو إلا فرد منقطع الصلة بخالق الوجود ، فهو منقطع الصلة بالوجود ، لا تربطه به إلا روابط هزيلة من وجوده الفردى المحدود ؟ إن الصلة بالله والصلة فى الله لتصلان الفرد الفانى بالأزل القديم والخلود الدائم ، ثم تصلانه بالكون الحادث والحياة المديدة ، ثم تصلانه بالإنسانية كلها ذات الإله الواحد ، والدين الواحد ، والاتجاه الواحد ، والعبادة الواحدة ، فهو فى ثراء من الوشائج ، وفى ثراء من الصلات ، وفى ثراء من الوجود الزاخر الممتد الذى لا يقف عند عمره الفردى المحدود .

ألا إن الكفر موت فى كل صورة من صوره . ولكن موتى الكفر لا يشعرون بما هم فيه من موت مقيم .

« أو من كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ » . . كذلك كان المسلمون قبل أن ينفخ الإيمان فى أرواحهم فيحييها ، ويصلها بالله تتفيأ فى ظلاله روح الطمأنينة والثقة والراحة . كانت قلوبهم مواتا ، وكانت أرواحهم ظلاما ، ثم إذا قلوبهم ينضح عليها الإيمان فتهتز ، وإذا أرواحهم يشرق عليها الإيمان فتتفتح ، ويفيض منها النور ، فتمشى به فى الناس تهدى الضال به وتلتقط الشارد وتطمئن الخائف . . أفمن نفخ الإيمان فى قلبه حياة ، وأشاع فى روحه نورا ، كمن هو فى الظلمات المطبقة ، لا مخرج له منها ولا نجاة ؟

إن الكشف عن طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر ليكشف لنا كذلك كيف زين للكافرين ما كانوا يعملون. وكيف يمكر أكابر المجرمين فى كل قرية، غير شاعرين أنهم بأنفسهم يمكرون. . إن القلب الكافر ميت لا حساسية فيه ولا نور ، فلا جرم يقترف ما يقترف فلا يحس ما فى عمله من شناعة ، ولا يرى ما فيه من بشاعة « كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » زين لهم لأنهم عاجزون عن التمييز بين الحسن والقبيح ، وبين الطهر والدنس ، وبين الهدى والضلال . . وإن القلب الكافر الميت ليمكر ويبيت دون أن يشعر بأن كيده مردود عليه ، وأنه مأخوذ به ؛ لأن إدراكه معطل ، ولأنه فى الظلام يعيش فلا يدرك ولا يبصر : « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » . . وإن القلب الكافر الميت المنعزل عن الله لن يدرك حكمة الله فى اختيار الرسل ؛ ولن يستشعر المزايا والخصائص الكامنة فيمن يجعل الله فيه رسالته . . فلا جرم يستكثر على الرسول أن يؤتيه الله فضل الرسالة ، ويعاند ويتبجح فيطلب أن يؤتى مثلما أوتى الرسول : « وإذا جاءتهم آية قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتى رسل الله » .

وأكابر المجرمين يكبرهم الأتباع الضالون، الذين لا يتصلون بالله، ولو اتصلوا به لعزوا واعتزوا ، ولما أصبحوا تبعا لأكابر المجرمين ، بل لأنكروا عليهم ما يعملون . لذلك يكبر على القوم الذين تعودوا أن يطاعوا ، واعتادوا أن يكون لهم الصغار أتباعا . . يكبر عليهم أن يؤمنوا لرسول ، وأن يسلموا بآية تجىء على يديه ؛ لذلك يقولون قولتهم المنكرة : « لن نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتى رسل الله » . وهنا يجبههم الرد الحاسم : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » فهو يختار لها

بحكمته وعلمه من يصلح لها ويستحقها وينهض بها ، ويتلقاها مستسلما ، ويهب لها نفسه ، وينسى في سبيلها ذاته ؛ لا أولئك الذين يتخذون من ذواتهم محورا للحياة ، فيطلبون أن يؤتوا مثلما أوتى رسل الله ! .. ثم التهديد بالصغار والهوان على الله ، في مقابل العزة بالإثم ، والاستكبار عن الحق ، والنفخة بين الأتباع : « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله » وفوق الصغار والهوان . وهو في ذاته جزاء وعقاب . فوقه وبالإضافة إليه « وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » . . . فمكرهم وبال عليهم ، وذلك مصداق : « وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » . .

تلك طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان . وذلك تأويل الإصرار من الكفار على ما يعملون ، والمكر السيء ممن يمكرون . وهذا جزاء الإصرار وجزاء المكر السيء من الكفار . . فمن يرد الله أن يهديه — حين يستحق الهدى بالتبصر والنظر في آيات الله ، وهي مبثوثة في تضاعيف الكون والنفس ، وفي كلمات الله ورسالات الأنبياء — « يشرح صدره للإسلام » فيتلقاه ويسعه ويمتزج به ويطمئن إليه . . « ومن يرد أن يضله » — حين يستحق الضلال بتعطيل حواسه وجوارحه وبصيرته عن التطلع والاتصال والاستجابة — « يجعل صدره ضيقا حرجا » فهو مغلق مطموس يجد العسر والمشقة في مشاعره وخوالجه وأحاسيسه « كأنما يصعد في السماء » وهي حالة نفسية ، يجسمها بعرض مشهد حسي من ضيق النفس ، وكربة الصدر ، والرهق المضني في التصعد إلى السماء . وبناء اللفظة ذاته : « يصعد » فيه هذا العسر والقبض والجهد ، وجرسه يخيل هذا كله ، فيتناسق مع المشهد الشاخص في الخيال . . « كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » جزاء إعراضهم عن الإيمان الذي كانوا يملكون . ومن معاني الرجس العذاب . ولكن بناء اللفظ يلون هذا العذاب بالدنس والارتكاس فيه .. وهو لون يتفق بكل جزئياته مع طبيعة الكفر كما كشف عنها السياق .

وبعد هذا كله يشير إلى طريق الله ليسلك فيه من يريدون الهدى ، ومن يبتغون أن يشرح الله صدورهم للإسلام :

« وهذا صراط ربك مستقيما . قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون . لهم دار السلام عند ربهم ، وهو وليهم بما كانوا يعملون » ..

هذاهوالصراط مستقيما لا عوج فيه . صراط ربك . بهذه الإضافة المطمئنة الموحية بالثقة المبشرة بالنهاية . وهذا هو ناموسه فى الهدى والضلال ، وهذه هى سنته فى الجزاء والحساب « قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون »ويعتبرون ، وينتفعون بالذكرى والذكرى تنفع المؤمنين . وهؤلاء « لهم دار السلام عند ربهم » دار الطمانينة . دار النجاة . دار الامان ، مضمونة بضمان ربهم ، محفوظة مدخرة عند ربهم« وهو وليهم » فهو بهم كفيل ، ولهم ناصر ، وعليهم حفيظ . ذلك باستحقاقهم لهذا كله « بما كانوا يعملون » ..

* * *

ثم يمضى السياق ـ بمناسبة الحديث عن دار السلام المحفوظة لمن يذكرون ، فيتبعون الصراط المستقيم ـ فيعرض مشهدا من مشاهد القيامة . مشهد الحشر للجن والإنس . وقد أسلف أنهم « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » . . « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » .. فالآن يعرضهم فى مشهد شاخص ، حافل بالحوار ، والاعتراف ، والمناقشة والحكم والتعليق ، فائض بالحياة التى تزخر بها مشاهد القيامة فى القرآن :

« ويوم يحشرهم جميعا . يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ! وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ! قال : النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم ـ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ـ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : شهدنا على أنفسنا ! وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » . .

إن المشهد يبدأ مستقبلا : « ويوم يحشرهم جميعا » ولكنه يستحيل واقعا بحذف لفظة واحدة ، وابتداء الحوار مباشرة . فالتقدير « ويوم يحشرهم جميعا » ـ فيقول ـ « يا معشر الجن .. » فحذف هذا اللفظ ـ يقول ـ قد انتقل بالتعبير نقلة بعيدة فى عالم التصوير ؛ وأحال السياق من مستقبل ينتظر إلى واقع ينظر .. وذلك من خصائص التصوير القرآنى العجيب[1]. فلنتتبع ذلك المشهد المعروض :

---

(١) كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » . وكتاب « مشاهد القيامة فى القرآن » .

« يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس » .. استكثرتم من التابعين لكم من الإنس ، المستمعين لإيحائكم ، المطيعين لوسوستكم ، المتبعين لخطواتكم . . وهو إخبار لا يقصد به الإخبار . فالجن يعلمون أنهم قد استكثروا من الأتباع . إنما يقصد به تسجيل الجريمة . جريمة إغواء هذا الحشد الكبير ـ الذى نكاد نلمحه فى المشهد المحشود ! ـ لذلك لا يجيب الجن على السؤال بشىء . ولكن الأغرار الأغمار من الإنس المستخفين يجيبون عما لم يسألوا : « وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ! » وهو جواب يكشف لنا عن طبيعة الغفلة والخفة فى هؤلاء الأتباع ، كما يكشف عن مدخل الشيطان إلى نفوسهم فى دار الخداع . لقد كانوا يأخذون إغواء الجن لهم مأخذ المتاع والاستمتاع ؛ فمن منفذ الاستمتاع دخل إليهم الشيطان ؛ وهم بغفلتهم يحسبون اللحظة وقد حشروا مع الجن أنه كان استمتاعا متبادلا ، يمتعون فيه ويتمتعون ! « استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا » وأدركنا الموت ونحن فى ذلك المتاع !

عند ذلك يجىء الحكم العاجل ردا على العجلة فى الجواب ، قبل انتهاء الحوار : « قال : النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله » . . فالنار مثابة ومأوى . والمثوى للإقامة . وهى إقامة الدوام ـ إلا ما شاء الله ـ والأمر كله متروك لله ، يقدره بما يراه : « إن ربك حكيم عليم » .

وقبل استئناف الحوار لإتمام المشهد، يتحول السياق للتعقيب على شطر المشهد المنتهى ـ وقد انكشفت طبيعة الغاوين وطبيعة الغواية ـ ليقول إنه بمثل ذلك وبمقتضاه يستحق الظالمون أن يكون بعضهم أولياء بعض ، فهناك توافق وهناك استحقاق لهذا الولاء : « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » .. والجن ظالمون وأتباعهم ظالمون ، وكذلك نولى بعضهم بعضا بما كسب كلاهما من الإغواء والغواية .. على أن تولية بعض الظالمين بعضا أعم من هذه الملابسة الخاصة فى السياق . أعم من ناحية موضعها ومن ناحية التولية ذاتها . فالظالمون من الناس يوالى بعضهم بعضا ، ويحالف بعضهم بعضا، بحكم ما بينهم من صلات فى المشاعر والأهداف ـ ونحن نجد فى الأحلاف القائمة من حولنا فى الأرض مصداق هذا القرار ـ والظالمون من

الناس يلى عليهم الظلمة من الحكام ، لأن الحاكم الظالم لايستطيع البقاء عادة فى مجتمع يعدل أهله بينهم وبين أنفسهم ، فما يبقى إلا ولظلمه للرعية سند من ظلم بعض الرعية لبعض: «وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » .

ثم نعود مع السياق إلى شطر المشهد الأخير ؛ فإذا الاستجواب فى هذه المرة للجن والإنس أجمعين :

« يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ، يقصون عليكم آياتى ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ » وهو سؤال كذلك للتقرير والتسجيل ؛ فالله ـ سبحانه ـ يعلم ما كان . ونحن نعلم الرسل من الإنس إلى الإنس . فهل كان للجن رسل منهم ؟ أم إنه لما اجتمع الإنس والجن جاء الخطاب عاما ، والرسل من أحد الفريقين ؟ نرجح أن يكون هذا هو المقصود . على أية حال لقد أدرك المسؤولون أنه سؤال التقرير والتسجيل ، فلم يجيبوا الجواب المباشر ، إنما سجلوا على أنفسهم الشهادة بالمعصية: « قالوا : شهدنا على أنفسنا »لإحساسهم بدلالة الموقف،وهدف السؤال المرهوب ! « وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » .

ونقف لحظة أمام الأسلوب القرآنى العجيب فى رسم المشاهد حاضرة ، ورد المستقبل المنظور واقعا مشهودا . إن هذا القرآن يتلى على الناس فى هذه الدنيا الحاضرة. فى هذه الأرض المعهودة . ولكنه يعرض مشهد الآخرة كأنه حاضر ،والدنيا كأنها ماض كان . فننسى أن ذلك مشهد سيكون يوم الحشر . ونستشعر أنه أمامنا اللحظة،وأنه يتحدث عن تلك الدنيا التى كانت ولن تعود : « وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم ـ كانوا ـ كافرين » وذلك من عجائب التخييل !

* * *

وعلى ختام المشهد يلتفت السياق بالخطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو إلى كل أحد من المشاهدين ، تعقيبا على الحكم الصادر بإحالة هذا الحشد إلى النار مثوى ومقاما ؛ وإشهادا على إقرار المذنبين على أنفسهم بأن الرسل جاءتهم وأنهم ظلوا بعد الرسل كافرين ؛ وتقريرا بأن العذاب لا بد أن يسبقه الإنذار عدلا من الله ورحمة :

« ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى — بظلم — وأهلها غافلون » ..

فربك لا يظلم ، ولا يعذب أحدا وهو غافل لم ينذر . وكذلك لا يهلك القرى فى الدنيا إلا أن ينذرها نذير ..

ثم تقرير آخر : أن الجزاء ليس واحدا . فهو درجات بحسب الأعمال . والأعمال مرصودة لا يغفل منها شىء :

« ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون » ..

فالدرجات التى نالوها هى الدرجات التى عملوها . فكأن العمل بذاته صار جزاء. فالجزاء من نوعه وبحسبه . والعمل متروك للناس يتسابقون فيه . والجزاء ينتظرهم عادلا لا ظلم فيه .

على أن الله إنما يرسل الرسل رحمة بالعباد ، فهو غنى عن إيمانهم به وعبادتهم له ، وإحسانهم إنما هو إحسان لأنفسهم فى الدنيا والآخرة . كذلك تتجلى رحمته فى الإبقاء على الجيل المذنب العاصى الشارد ، وهو القادر على أن يهلكه ، وينشىء جيلا آخر يستخلفه :

« وربك الغنى ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ، كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين » ..

فلا تنسوا أنكم باقون برحمة الله ، وأن بقاءكم معلق بمشيئة الله ، وأن ذهابكم واستخلاف سواكم سهل هين ، يمضى على السنة الجارية .. تذهبون ويعقبكم جيل « كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين » .. والإنشاء ابتداء هين على الله كالاستخلاف . ولكنه يعرض عليهم المألوف الجارى الواقع ، لأنه أقرب إلى تصورات البشر الفانين.

« إن ماتوعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين » ..

وأنتم بين يدى الله وفى قبضته ، ورهن مشيئته . فلستم بمفلتين أو مستعصين . ويوم الحشر الذى شاهدتم منه مشهدا منذ لحظة ينتظركم ، وإنه لآت لا ريب فيه ، ولن تفلتوا يومها وما أنتم بمعجزين .

ثم تنتهى التعقيبات على المشهد المؤثر بالتهديد الملفوف لمن يتمادون ويصرون :

« قل : ياقوم اعملوا على مكانتكم ، إنى عامل ،فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار . إنه لا يفلح الظالمون » ..

إنه التهديد الذى يتضمنه نفض الرسول ليده منهم ، وتركهم لأنفسهم ، وعدم عنايته بما يكون منهم ، وثقته بالعاقبة له ولهم.. «ياقوم اعملوا على مكانتكم» كما تشاءون وبقدر ماتملكون، فلست أحفلكم شيئا : « إنى عامل » على طريقتى ماض فى سبيلى ، واثق من أن العاقبة لى : « فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار » . مستيقن من سوء عقباكم : « إنه لا يفلح الظالمون » ..

ومع أن هذا هو مفهوم النص ، فإن منطوقه يلف التهديد لفا ، ويتخذ له طريقة أبلغ فى التأثير الوجدانى ، دون تصريح بذلك المفهوم .. إن الذى يدعو المخالفين له ، المعادين لدينه ، أن يعملوا جهدهم ، وأن يستمروا فى طريقهم ، فلا يطلب إليهم كفا ولا تغييرا . ثم يعالنهم أنه هو ماض فى طريقه لا يلتفت عنها مطمئنا إلى العاقبة فى النهاية .. إن الذى يقول هذا ويفعله لا بد أن يكون واثقا مما يقول ، ولا بد أن تكون لديه الدلائل كاملة على صحة ما يقول .. ولهذا إيحاؤه للنفس وتأثيره فى القلب . والقرآن الكريم يأخذ القلب البشرى بشتى الأساليب؛ ويسلك إليه شتى السبل ؛ ويلمس الوجدان شتى اللمسات لعله ينفعل ويتأثر ويستجيب. وسبحان مقلب القلوب ..

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً ، فَقَالُوا : هَٰذَا لِلَّهِ ـ بِزَعْمِهِمْ ـ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا . فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ . سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ! * وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ، لِيُرْدُوهُمْ ، وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ـ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ـ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا : هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ ـ بِزَعْمِهِمْ ـ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ، وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ، افْتِرَاءً

عَلَيْهِ . سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا : مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا ، وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ . سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ، ٱفْتِرَاءً عَلَى ٱللَّهِ . قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

« وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ ، وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ ، مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ . كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ ٱلْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا . كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ . قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنْثَيَيْنِ ؟ أَمْ مَا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنْثَيَيْنِ ؟ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ ، وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ . قُلْ : آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنْثَيَيْنِ ؟ أَمْ مَا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنْثَيَيْنِ ؟ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ؟ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ؟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ .

« قُلْ : لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ – فَإِنَّهُ رِجْسٌ – أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ . فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ، وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ، إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ ٱلْحَوَايَا أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ : رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ .

« سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ، وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ

شَىْءٍ . كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا . قُلْ : هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ : فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ : هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ؛ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » .

هذه السورة ــ سورة الأنعام ــ تعالج من بدئها إلى نهايتها قضية العقيدة ، بكل مقوماتها وبكل مكوناتها ، وهى تأخذ ــ كما قلنا ــ بمجامع النفس البشرية وتطوّف بها فى الوجود كله ، وراء ينابيع العقيدة المستسرة والظاهرة فى هذا الوجود الكبير [1] . كذلك هى تكشف عن مكامن الشرك ومظاهره فى كل مظانه ومواطنه ، لتدمغه وتدحضه ، وتخلص النفس البشرية والحياة البشرية من أوشابه وأدرانه .

والسياق فى هذه السورة ، كما يتتبع خلجات الشرك ووساوسه وخيوطه ووشائجه فى أغوار النفس وأعماق الضمير ، فهو يتتبع ظلال الشرك وسماته ومظاهره وآثاره فى واقع المجتمع وعاداته وتقاليده الموروثة والمبتدعة بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

إن التقاليد والعادات هى التى تصبغ وجه المجتمع ، وتمنحه طابعا معينا ، فلا يكفى تنقية العقيدة فى الضمير ، بل لابد من تنقية المجتمع كذلك من تقاليده ، ليتسق ظاهر الحياة الإنسانية وباطنها . فالتناسق بين الظاهر والباطن ، بين العقيدة المستسرة فى الضمير والتقاليد السائدة فى المجتمع هو معنى من معانى التوحيد الشاملة كما جاء به دين التوحيد .

ومن ثم تلك العناية الظاهرة بمسألة التقاليد الوثنية ، والعادات الجاهلية التى كانت سائدة

---

(١) الجزء السابع من الظلال ص ٤٢ .

فى المجتمع العربى حول النذور والذبائح ، والتحليل فى المطاعم والمشارب والتحريم . حتى إن السورة كلها لتسمى سورة « الأنعام » ، دلالة على أهمية تلك التقاليد فى مجال العقيدة ، التى تعالجها السورة من شتى نواحيها .

ولقد سبقت فى سياق السورة إشارات ومناقشات للمشركين فى هذا المجال . أما هذا الدرس فيتوسع فى استعراض أوهام الجاهلية ، حول التقاليد الوثنية ، المتعلقة بالنذور والذبائح ؛ ويتتبع هذه الأوهام فى منابتها فيكشفها للنور ، ويجلى ما يحوط بها من شبهات لا أصل لها ولا أساس ، إلا التقليد الأعمى ، أو الهوى الناشىء من انحراف الضمير . . وذلك كله متصل بما قبله فى سياق السورة . فإن هو إلا بعض الانحراف عن عقيدة التوحيد ، ينشىء آثاره فى كل جوانب الحياة ، والضمير البشرى متى انحرف عن الصراط ، فلا آخر لانحرافاته وكبواته وضلاله فى شتى المنعرجات والدروب . .

* * *

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا : هـذا لله ـ بزعمهم ـ وهـذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون » . .

هـذه هى الضلالة الأولى ، وهى تشتمل عددا من الأوهام والمفارقات والانحرافات والاحتيالات ، تنبثق كلها من انحراف عقيدة التوحيد الواضحة المستقيمة .

لقد كانوا يعمدون إلى قسم من الزرع وقسم من الأنعام ، فيجعلونها نصيبين : نصيبا لله ، ونصيبا لآلهتهم التى يشركونها فى مالهم وأبنائهم وحياتهم ـ ومن ثم سماها شركاءهم ـ وهذه هى الضلالة الاصيلة ، فالله هو خالق الحرث والأنعام ، فما هو بحاجة إلى أن يخصص له العباد نصيبا مما خلق . فأما إذا شاءوا أن يجعلوها باسمه لتصرف فى البر بخلقه ، فما يجوز لهم أن يشركوا مع الله أحداً ، ولا أن يقسموا لغيره مما خلق نصيبا .

غير أنهم لم يكونوا يقفون عند هذه الضلالة ـ ضلالة الشرك الكبرى ـ بل يلجون فى العثار . فما

خصصوه لشركائهم فهو وقف عليها ، لا يأخذون منه لجانب الله شيئا ؛ وما كان لله فهم ينقصونه أحيانا ويضمونه إلى نصيب الشركاء ! [١].

« ساء ما يحكمون » . . ساء جملة وتفصيلا . ساء إشراكهم بالله أول مرة وحكمهم فى قضية العقيدة بهذا الشرك السخيف . وساء حكمهم فى القسمة بين الله وسواه ، وهو الذى ذرأ الحرث والأنعام التى يقسمون . وساء حكمهم فى انتقاص ما خصصوه لله ، وضمه — على أى وجه من الوجوه — إلى ما خصصوه للشركاء . وكلها أوهام نابعة من الوهم الأول ، وضلالات مشتقة من الضلالة الأولى .

« وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ، ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون » . .

وهذه هى الضلالة الثانية . النابعة كذلك من نبع الضلال الأصيل .

لقد زين لهم شركاؤهم أن يقتلوا أولادهم . إشارة إلى وأد البنات ، وأحيانا ذبح البنين على سبيل النذر ، كما روى أن عبد المطلب نذر لئن أكمل له الله عشرة ذكور ليذبحن العاشر ، وكانت على عبد الله ، ولكنه فداه بالإبل على نحو ما هو معروف فى كتب السيرة [٢]. وشركاؤهم هؤلاء قد يكونون هم الموسوسين لهم من الشياطين ، يخوفونهم الفقر ، كما ورد فى موضع آخر من القرآن : « الشيطان يعدكم الفقر » . وقد يكونون هم أولئك الآلهة التى يجعلون لها نصيبا مما خلق الله من الحرث والأنعام ، على معنى أن ضلالة الشرك بالله تتبعها وتنبع منها ضلالة قتل الأولاد ، فكأنما هذه الآلهة هى التى تزين الضلالة الأخيرة . وما من شك أن الإيمان بالله وحده يمتنع معه قتل الأولاد للفقر أو للنذر . وهذه كتلك إنما تنبع من العقيدة فى الشركاء .

---

(١) قال ابن عباس وقتادة : عمد أناس من أهل الضلالة فجزأوا من حروثهم ومواشيهم جزءا لله تعالى وجزءا لشركائهم ، فكانوا إذا خالط شىء مما جزأوا لشركائهم ما جزأوا لله تعالى ردوه على شركائهم ، وكانوا إذا أصابتهم السنة (يعنى الجدب) استعانوا بما جزأوا لله تعالى ووفوه ما جزأوا لشركائهم . . وقال الحسن والسدى : إنهم كانوا إذا هلك الذى لأوثانهم اخذوا بدله مما لله تعالى ، ولا يفعلون مثل ذلك فيما لله تعالى . وقيل : إنهم كانوا يصرفون بعض ما جعلوه لله فى النفقة على أوثانهم ، ولا يفعلون مثل ذلك فيما جعلوه للأوثان. (عن أحكام القرآن للجصاص) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام الجزء الأول ص ١٦٠ — ص ١٦٤ .

والغاية من ذلك التزيين هي إرداء الأولاد بالقتل ، وإرداء الآباء بالذنب ؛ وتلبيس الدين وتخليطه.فلاتتضح لهم عقيدة خالصة من تلك الأباطيل. والشركاء يزينون لهم مايزينون : «ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم» .. «ولوشاء الله مافعلوه» ماقتلوا أولادهم وانقادوا للتضليل والتزيين . ولكنه شاء أن تجرى السنة بماجرت ، وأن تجر الضلالة الأولى وهى الشرك إلى سائر الضلالات بعدها ، فجرت الأحداث وفق السنة التى شاءها وقررها . لذلك يجىء التعقيب : « فذرهم ومايفترون » ودعهم فى افترائهم على الله وعلى الحق . فهم ماضون فى هذه الطريق بعد أن بدأوها بالشرك . والشرك قائدهم إلى مفتريات لاحد لها فذرهم لمفترياتهم المتفرعة عن ذلك الضلال الكبير .

« وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر ، لا يطعمها إلا من نشاء – بزعمهم – وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها – افتراء على الله – سيجزيهم بما كانوا يفترون » . .

وهذه هى الضلالة الثالثة ، تنبع كذلك من ذات المعين .

لقد ساقتهم أوهام الوثنية وضلالاتها فعمدوا إلى عزل قسم من الأنعام والحرث ، قالوا : إنها محجرة غير مطلقة ، موقوفة على الآلهة لا يجوز أن يطعمها إلا سدنة هذه الآلهة « بزعمهم » دون مادليل إلا هذا الزعم . وعمدوا إلى قسم آخر من الأنعام فحرموا ظهورها على الركوب ، لأنها نذرت للآلهة ، أولأنها ولدت كذا بطنا ، أولأنها حمت ظهرها بعدد من الضراب (على ماتقدم فى سورة المائدة عند شرح البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى) [1] . وعمدوا إلى قسم ثالث من الأنعام فقالوا : إنهم لا يذكرون اسم الله عليها حين يركبونها أو حين يذبحونها ، أو أنهم يركبونها فى غير الحج ، لأن فيه ذكر الله . . إلى آخر هذه الخزعبلات المفتراة على الله . .

ويعقب على هذا الافتراء بالتهديد : « سيجزيهم بما كانوا يفترون » . .

« وقالوا : ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم . إنه حكيم عليم » . .

وهذه هى الضلالة الرابعة ، تتصل بالثالثة ، وتنبع معها من الضلالة الأولى .

لقد استطردوا فى الأوهام ، النابعة من انحرافات الشرك والوثنية ، فقالوا عن بعض الأجنة

(١) الجزء السابع من الظلال ص ٢٥ – ص ٢٦ .

فى بطون الأنعام . إنها خالصة للذكور حين تنتج ، محرمة على الإناث ، إلا أن تكون ميتة ، فللإناث أن يشاركوا فيها الذكران .. هكذا بلا سبب ولا دليل ولا تعليل .. « سيجزيهم وصفهم » فهذا الافتراء وصف لا حقيقة . كأنه لاماهية لهذا الموضوع إنما هو مجرد وصف وكلام ! « إنه حكيم عليم » يعلم حقائق الأحوال ، ويتصرف فيها بحكمة وخبرة ، لا كما يتصرف هؤلاء بالجهل والأهواء .

وإن الإنسان ليعجب ، وهو يستعرض مع السياق هذه الضلالات ، وما تحمل أصحابها من أعباء وخسائر وتضحيات . يعجب لتكاليف الانحراف ، التى يحتملها المنحرفون ، ولأثقال الخرافة التى يتبعها الضالون ، ولأغلال العقيدة الفاسدة فى المجتمع والضمير .. نعم يعجب للعقيدة الفاسدة تكلف الناس — حتى فلذات أكبادهم — فوق ما تكلفهم من تعقيد الحياة ، وتشويهها ، والسير فيها على غير ضابط ، سوى الوهم والهوى والتقليد . وأمامهم التوحيد البسيط الواضح ، يطلق الضمير البشرى من أوهاق الوهم والخرافة ؛ ويطلق العقل البشرى من عقال التقليد الذى لا يقوم على إدراك أو تدبر ؛ ويطلق المجتمع البشرى من تقاليد الوثنية وتكاليفها ؛ ويحل محل هذا كله عقيدة واضحة مفهومة مضبوطة لا يلتوى بها الطريق .

ألا إنها الخسارة الفادحة حين تنحرف البشرية عن صراط الله المستقيم :

« قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

خسروا — ولا يذكر التعبير مفعولا معينا يقع عليه الفعل — لإطلاق الخسارة من كل تحديد . إنها خسارة مطلقة . خسارة الولد وخسارة المتاع برزق الله — لا عن بينة ولكن عن افتراء — وقبل ذلك خسارة الهدى أصلا ، وخسارة الاطمئنان إلى الطريق ، وخسارة اليسر فى عقيدة التوحيد ، وخسارة الخضوع للأوهام وتكبيلها للضمائر والأفهام .. « قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

* * *

بعد ذلك يردهم السياق إلى الحقيقة الكبرى التى ضلوا عنها ، فقادهم الضلال الأكبر إلى تلك الضلالات ، والتقاليد والعادات . يردهم إلى نشأة الحرث والأنعام ، وإلى الخالق الذى ذرأ الحرث والأنعام ، متاعا للناس ونعمة ، لا ليصوغوا حولها الأباطيل والأوهام ؛ ولا ليحرموا

بعضها على أنفسهم دون إذن من خالقها وبارئها وصاحب الإذن فى حلها وحرمتها، أو ليحجروا بعضها ويجعلوه وقفا على الأوثان أو سدنة الأوثان :

« وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان ، متشابها وغير متشابه . كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . ومن الأنعام حمولة وفرشا . كلوا مما رزقكم الله ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين » .

إن الله هو الذى خلق هذه الجنات ابتداء ؛ منها الإنسى الذى يتعهده الإنسان بالعرائش والحوائط ، ومنها البرى الذى ينبت بذاته وينمو بلا مساعدة من الإنسان ولا تنظيم . وإن الله هو الذى أنشأ النخل والزرع مختلف الألوان والأشكال والطعوم . وإن الله هو الذى خلق الزيتون والرمان ، منوع الصنوف ، متشابها وغير متشابه .. إنه هو الخالق وهذا الحرث كله من خلقه ؛ فإليه مرد الأمر فى حله وحرمته ، فى الاستمتاع به وفى إنفاقه. وأمره الوحيد « كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » .. كلوا منه بلا إسراف فهو لكم حلال. وأخرجوا حقه من الزكاة المفروضة، أو من الصدقة لمن يحضر قطافه [١] .

وإن الله هو الذى جعل من الأنعام « حمولة وفرشا » حمولة عالية القوائم بعيدة عن الأرض وفرشا صغيرة الأجسام قريبة من الأرض . الأولى كالإبل والبقر ، والثانية كالضأن والمعز — أو الكبار والصغار من هؤلاء جميعاً — فهى إشارة إلى تنويع الأشكال والأحجام، على نحو ما سلف فى الزروع والأشجار. والتنويع أدل على القدرة، وأوقع فى النفس عند التنبيه إلى آثار القدرة.. أنشأ لكم كبار الأنعام وصغارها ، لتكون حلا ومتاعا ، ولتتبعوا فيها أمر الخالق الذى أنشأها ونوعها: « كلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان. إنه لكم عدو مبين » .

---

(١) هناك خلاف فقهى . هل هذا الحق هو الذى فصلته السنة فيما بعد ، بأنه العشر ونصف العشر زكاة. أم هو حق الصدقة الذى كان مفروضا فى مكة حتى نسخ بحق الزكاة فى المدينة. أم هو حق صدقة مفروضة عند الحصاد غير مقدرة غير حق الزكاة المفروض عند الكيل .. ونحن نميل إلى اعتبار أن هذا حث على الصدقة عند الحصاد لا أمر للوجوب ، فهو وارد بجانب كلوا من ثمره إذا أثمر وليس أمرا للوجوب . أما الزكاة المفروضة فقد فرضت وبينتها السنة فى المدينة . على أن هناك رواية أن هذه الآية مدنية لا مكية . فإذا صحت كان التفسير الأول أقرب . .

هذا التوجيه إلى نشأة الأنعام والحرث ، وإلى خالق الأنعام والحرث ، يأتى فى أوانه، ليردهم إلى شرعة الله الخالق ، فهو الذى يعلم لماذا خلق ، وهو الذى يقضى بالحل والحرمة فيما خلق .. لا الشيطان الذى لم يخلق شيئا . وذلك فوق عداوته لبنى الإنسان .

* * *

ثم يأخذ السياق فى تفصيل يتتبع به مكامن الأوهام الجاهلية ، ليلقى عليها النور ؛ ويستعرضها واحدا واحدا ، وجزئية جزئية ، فيكشف عن السخف الذى لا يمكن الدفاع عنه، والذى قد يخجل صاحبه من استعراضه مفصلا ، ويعجز عن تعليله فى وضح النور :

« ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين . قل : آلذكرين حرم أم الأنثيين ؟ أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ نبئونى بعلم إن كنتم صادقين . ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين . قل آلذكرين حرم أم الأنثيين ؟ أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم . إن الله لا يهدى القوم الظالمين » . .

فهذه الأنعام التى يدور حولها الجدل ثمانية أزواج ــ وكل من الذكر والأنثى يطلق عليه لفظ زوج عند ما يكون مع رفيقه ــ ذكر وأنثى من الضأن وذكر وأنثى من المعز . فأى منها حرمه الله على أى من الناس ؟ أم إنه حرم أجنتها فى البطون ؟ « نبئونى بعلم إن كنتم صادقين » لا عن ظن ووهم وتقليد لا يستند إلى دليل . . وبقية الأزواج ، ذكر وأنثى من الإبل ، وذكر وأنثى من البقر . فأيها كذلك حرم ؟ أم أجنتها هى التى حرم الله على الناس ؟ « أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا » ؟ فحضرتم وشهدتم وصية الله لكم خاصة بهذا التحريم .. ويالِه من تهكم ! بعد ذلك التفصيل المقصود ، والتجزئة المتعمدة للإفحام والتسخيف . فعلام تستندون فى تلك الأضاليل ؟ أعلى أمر من الله علمتموه ، أم على وصية خاصة من الله لكم دون العالمين ؟ !

والتعقيب على هذا التهكم والتسفيه هو التهديد : « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين» . . من أظلم ممن يفترى أولا ، ويضل الناس ثانيا ، وهو لا يستند إلى علم ولا بينة فيما يدعيه ؟ إنه الظلم الذى لا يستحق معه صاحبه

هداية من الله ؛ وقد قطع بينه وبين الله بهذا الافتراء الظالم المقيت .

* * *

والآن وقد كشف لهم عما فى اعتقاداتهم وعاداتهم من وهن وسخف وهزال ؛ وقد بين لهم أنها لا تقوم على علم ولا بينة ولا أساس ؛ بعد ما ردهم إلى نشأة الحرث والأنعام ، وإلى خالق الحرث والأنعام ، وإلى إباحة الخالق لما يحرمونه على أنفسهم بلا دليل .

الآن يعود ليبين لهم ما حرمه الله عليهم من هذا كله حقا ؛ عن بينة ووحى لا عن وهم وهوى ؛ وهو المحرم الذى يتحرج منه ، لأنه محرم بأمر الخالق ، وصاحب الكلمة العليا فيما يحل مما خلقه وما يحرم ؛ وبالمناسبة يذكر ما حرم كذلك على اليهود خاصة ، وليس حراما على سواهم ، لأن تحريمه كان عقوبة خاصة لبنى إسرائيل :

« قل : لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه ، إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير ـ فإنه رجس ـ أو فسقا أهل لغير الله به . فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم . وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ـ إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ـ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون . فإن كذبوك فقل : ربكم ذو رحمة واسعة ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » ..

« قل : لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه . . . » وإذن فالحلال والحرام لا يتبعان الأهواء والآراء . إنما يتبعان الوحى من عند الله . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما يتبع هذا الوحى ، فأولى لهم أن يقفوا عنده ، ولا يحرموا أو يحللوا جزافا كما يفعلون . . وهكذا يكشف لهم القرآن الكريم عن الطريق القويم فى التحريم والتحليل .

وهذه المحرمات الأربعة : الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به قد سبق الكلام عنها فى تفسير سورة البقرة[1] وتفسير سورة المائدة[2] . وقد ورد ذكرها هنا فى سورة الأنعام ، قبل وروده فى البقرة وفى المائدة ، بحكم أن سورة الأنعام مكية وهما مدنيتان ، وما زاد من المحرمات فى سورة المائدة فهو تفصيل للميتة أو لما أهل لغير الله به . ولكن ليس معنى

---

(١) الجزء الثانى من الظلال ص ٢٥ . (٢) الجزء السادس من الظلال ص ٢٨ ـ ٢٩ .

الحصر هنا أن ليس هناك محرم سوى هذه الأنواع الأربعة . فهناك محرمات ورد بها نص خاص كالخمر ولحوم الحمر الأهلية[1] . إنما كان الكلام هنا بصدد ما يحرم المشركون ، فتكلم عن المحرم فى هذا المجال الذى يتحدث عنه السياق .

فأما اليهود فقد حرم الله عليهم كل ذى ظفر من الحيوان . أى كل حيوان قدمه غير مشقوقة كالإبل والنعام والإوز . وحرم عليهم كذلك شحم البقر والغنم ، إلا شحم الظهر ، أو الدهن الملتف بالأمعاء ، أو ما اختلط منه بالعظم كالذنب . وكان ذلك عقوبة لهم على البغى والعدوان : « ذلك جزيناهم ببغيهم » . . « وإنا لصادقون » فى حكاية ما حرم على اليهود ، والسبب الذى من أجله حرم . أن كانوا ليزعمون أن إسرائيل ـ جدهم ـ قد حرم هذا على نفسه ، فهم يتبعونه . ولقد كان الطعام كله حلا لإسرائيل وكان حلا لهم كذلك ، حتى بغوا وجاوزوا الحد ، فجازاهم الله بهذا الحرمان .

« فإن كذبوك » . هؤلاء المشركون فى أنك لا تجد فيما أوحى إليك محرما إلا هذه الأربعة . أو اليهود فيما حرم عليهم وفى سبب التحريم « فقل : ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » . . فقدم الرحمة ليقول لهم : مع أن رحمة ربكم واسعة ، ولكن لا تطمعوا فيها إذا كذبتم ، ولا تعتمدوا عليها مع سعتها ، فإن بأس الله لا يرد عن القوم المجرمين المكذبين المتمادين . وبذلك يقطع عليهم منذ البداية الطمع الذى قد يقودهم إلى التهاون فى الإنذار ، ويسوقهم إلى التمادى والإصرار . فالرحمة لمن يستحقون لا من يستهترون .

* * *

وعندما يصل السياق إلى هذا الحد من تضييق الخناق عليهم ، وسد الذرائع فى وجوههم ، يستشعر أن المشركين سيتنصلون من تبعة الضلال ، وقد عز عليهم أن يجدوا لهم سندا فيه ؛ وسيحيلون على مشيئة الله ، وعلى جبريتها ، وعلى أنهم مجبرون لا مخيرون فيما اعتسفوا من ضلال ، فذلك مهرب الذين يريدون الهروب من تبعة ما يعملون :

---

(١) ورد النهى عن الخمر فى آية : إنما الخمر والميسر . والنهى عن الحمر الأهلية فى الحديث : روى الزهرى عن الحسن وعبد الله ابنى محمد بن الحنفية عن أبيهما أنه سمع على بن أبى طالب يقول لابن عباس : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمر الإنسية وعن متعة النساء يوم خيبر . . وروى من طرق أخرى . .

« سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون . قل : فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين . قل : هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون » ..

وقضية الجبر والاختيار كثر فيها الجدل بين أهل السنة والمعتزلة والمجبرة ، وتدخلت الفلسفة الإغريقية والمنطق الإغريقى فى هذا الجدل ، فتعقد تعقيدا لا تعرفه العقلية الإسلامية الواضحة ، ولا العقلية العربية الصريحة . ولو أخذ الأمر بمنطق القرآن المباشر اليسر المستقيم ما اشتد هذا الجدل ، وماسار فى ذلك الطريق المعقد الذى سار فيه :

ونحن نواجه قول المشركين هنا والرد عليه فنجد القضية كلها واضحة ..

« سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » فهم يحيلون شركهم هم وآباؤهم وتحريمهم ما لم يحرمه الله عليهم ، بأن الله شاء لهم ذلك . فلو لم يشأ ما أشركوا ولا حرموا .

وهنا نجد القرآن الكريم يقول : « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » .. فيعد قولهم هذا تكذيبا .. فبأى شيء كان التكذيب ؟ لقد كذبوا بأن الله أمرهم أن يوحدوا وأمرهم ألا يحرموا دون دليل . فهم ملزمون إذن بأن يبحثوا عن أوامر الله وأن يطيعوها ، وبألا يحيلوا على مشيئة الله التى لا يعرفونها ، وليسوا مطالبين بأن يعرفوها . إنما هم مطالبون بما يؤمرون به أمرا صريحا ، أو ينهون عنه نهيا صريحا .

ودليل ذلك هذا السؤال الذى يأمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يوجهه إليهم : « قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ » فالإنسان مكلف ألا يفق بلا علم ، وألا يتبع الظن والوهم ، مكلف أن يأخذ بما أتاه عن علم ، وأن ينتهى بما نهى عنه عن علم ؛ وليس له أن يحيل على مشيئة الله التى لا يدرى عنها شيئا : « إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » . وفى مثل هذا الجو العملى الواقعى الواضح يجب أن يدرك المسلم حقيقة ماهو مكلف به وحقيقة ماهو منهى عنه ، وأن يعيش واعيا يقظا إيجابيا ، ولا يحيل على غيب تفرد الله بعلمه ، وهو عن البشر محجوب .

ذلك فى مجال التكاليف والعمل . فأما فى مجال النظر والجدل فالقضية كذلك واضحة،وقد وردت فى مناسبات شتى قبل ذلك : « قل : فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » .. لو شاء لجعل من سنته أن تكون فطرتكم على غير هذا النحو،وطبيعتكم على غير هذاالتكوين ؛ كما فطر الملائكة مثلا غير مهيأين للمعصية بتكوينهم ، فأما البشر فقد شاء أن يكون فى طبيعتهم الاستعداد للخير والشر ، ووهبهم العقل ليهتدوا به ، وأرسل إليهم رسلا.لينهوا فيهم استعداداتهم وعقولهم ؛ وسن لهم شريعة لتكون مقياسا ثابتا لما يأخذون وما يدعون ، كى لا يتركهم لعقولهم وحدها ، فقد تضل وتغلبها الشهوات إذا تركت بغير دليل . وإذن فمشيئة الله متحققة حسب سنته التى ارتضاها مختارا — وهو قادر على اختيار غيرها وعلى تبديلها وتعديلها — متحققة سواء اتخذ العبد طريقه إلى الهدى أو إلى الضلال ، فهو مخلوق بهذا الاستعداد وذاك . وهو مؤاخذ إن ضل ، وماجور إذا اهتدى . غير أن سنة الله اقتضت أن من يفتح عينه يبصر النور ومن يغمضها لا يراه . كذلك من يفتح قلبه لإدراك دلائل الإيمان يهتدى ، ومن يحجب قلبه عنها يضل . سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

تلك حجة الله البالغة .. أما فى القضية المعروضة هنا ، قضية التحليل والتحريم ، فهو يرجع بها إلى وجود أمر من الله بتحريم ما حرموا أو عدم وجوده . فهذا هو المرجع الذى يجب أن يرد إليه البشر كل قضاياهم،غير محتجين بإرادة خفية من الله ليس لهم عليها من شاهد ولادليل. ولقدطالبهم أن يأتوا بعلم إن كان لهم بذلك علم ، ثم هويطالبهم بشهادة على أن الله حرم هذا:«قل: هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا» .. ولكنهم قد يأتون بشهود زور،من الضالين المضلين أمثالهم ، يشهدون من غير علم ، ويدلون من غير بينة . «فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون » .. فهذه الصفات لا تؤهلهم لشهادة حق ، ولا تدعو إلى الثقة بهم ، ولا إلى التأمين على مايقولون .

وهكذا يأخذ عليهم أقطار الحجج والمعاذير ، بعد ما كشف عن وهن عقائدهم ، وسخف تقاليدهم ، وعبث أهوائهم . وسجل عليهم أن مايسمونه عقيدة إن هو إلا أوهام وأضاليل .

« قلْ : تعالَوْا أتلُ ماحرَّمَ ربُّكمْ عليكمْ . . ألا تُشركوا بهِ شيئاً ؛ وبالوالدينِ إحساناً ؛ ولا تقتلوا أولادكمْ منْ إملاقٍ ، نحنُ نرزقُكمْ وإيّاهمْ ؛ ولا تقربوا الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطنَ ؛ ولا تقتلوا النفسَ التي حرّمَ اللهُ إلّا بالحقّ . ذلكمْ وصّاكمْ بهِ لعلّكمْ تعقلونَ * ولا تقربوا مالَ اليتيمِ إلّا بالتي هيَ أحسنُ ، حتّى يبلغَ أشدّهُ ؛ وأوفوا الكيلَ والميزانَ بالقسطِ . لا نكلّفُ نفساً إلّا وسعها . وإذا قلتمْ فاعدلوا ولوْ كانَ ذا قربى ؛ وبعهدِ اللهِ أوفوا ذلكمْ وصّاكمْ بهِ لعلّكمْ تذكّرونَ * وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوهُ ولا تتّبعوا السُّبلَ فتفرّقَ بكمْ عنْ سبيلهِ . ذلكمْ وصّاكمْ بهِ لعلّكمْ تتّقونَ .

« ثمّ آتينا موسى الكتابَ تماماً على الذي أحسنَ ، وتفصيلاً لكلّ شيءٍ ، وهدًى ورحمةً لعلّهمْ بلقاءِ ربّهمْ يؤمنونَ * وهذا كتابٌ أنزلناهُ مباركٌ ، فاتّبعوهُ واتّقوا لعلّكمْ ترحمونَ * أنْ تقولوا : إنّما أنزلَ الكتابُ على طائفتينِ منْ قبلنا ، وإنْ كنّا عنْ دراستهمْ لغافلينَ * أوْ تقولوا لوْ أنّا أنزلَ علينا الكتابُ لكنّا أهدى منهمْ ، فقدْ جاءكمْ بيّنةٌ منْ ربّكمْ وهدًى ورحمةٌ ، فمنْ أظلمُ ممّنْ كذّبَ بآياتِ اللهِ وصدفَ عنها ؟ سنجزي الذينَ يصدفونَ عنْ آياتنا سوءَ العذابِ بما كانوا يصدفونَ * هلْ ينظرونَ إلّا أنْ تأتيهمُ الملائكةُ ، أوْ يأتيَ ربّكَ ، أوْ يأتيَ بعضُ آياتِ ربّكَ ؟ يومَ يأتي بعضُ آياتِ ربّكَ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لمْ تكنْ آمنتْ منْ قبلُ أوْ كسبتْ في إيمانها خيراً . قلِ انتظروا إنّا منتظرونَ .

« إنّ الذينَ فرّقوا دينهمْ وكانوا شيعاً لستَ منهمْ في شيءٍ ؛ إنّما أمرهمْ إلى اللهِ ، ثمّ ينبّئهمْ بما كانوا يفعلونَ * منْ جاءَ بالحسنةِ فلهُ عشرُ أمثالها ، ومنْ جاءَ بالسّيّئةِ فلا يجزى إلّا مثلها ، وهمْ لا يظلمونَ .

« قلْ : إنّني هداني ربّي إلى صراطٍ مستقيمٍ : ديناً قيماً ملّةَ إبراهيمَ حنيفاً

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ : إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ : أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا ، وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ؟ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ؛ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ، وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ . إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

انتهى السياق فى الدرس الماضى عند استنكار ما حرم المشركون على أنفسهم ، واستنكار طريقة التحريم ذاتها ، فى غير استناد إلى علم أو وصية من الله ؛ بعد بيان المحرمات من المطاعم التى أوحى الله بتحريمها ..

فالآن ينتهى السياق بهم إلى أفق أشمل،وإلى ميدان أفسح . الآن يدعوهم إلى استماع ماحرم الله عليهم وما أوجب ، من الأصول الكلية التى تقوم عليها العقيدة ، ويقوم عليها المجتمع ، وتقوم عليها الحياة . ذلك ليحسم ما بينهم وبين الرسول — صلى الله عليه وسلم — من جدل ، وليردهم إلى الأصول التى إن اتفقوا عليها اجتنبوا سائر المخالفات وسائر الضلالات .

ويبدأ هذا الدرس بدعوتهم إلى سماع ما حرم الله عليهم حقيقة وأصلا. ولكنه يذكر واجبات إيجابية مفروضة ، بجانب المحرمات التى يتلوها . بل يذكر أصول العقيدة الإسلامية ومعظم الحدود والمعاملات .. إنما بدأ بدعوتهم إلى سماع ما حرم تنسيقا مع جو السياق وتعبيراته ، ثم ليأخذهم من المحرمات إلى الفرائض ممتزجا بعضها ببعض ، وهذه وتلك قوام هذا النظام .

ثم ينتهى بإيقاعات عميقة على أوتار العقيدة — موضوع هذه السورة — يصل بعضها فى الحلاوة والنداوة أن تكون أنشودة رخية مرفرفة فى صورة تسبيحة روحية علوية . ذلك مع الوعد والوعيد ؛ ومع اللمسات الوجدانية التى تحرك القلوب ؛ ومع تقرير قواعد العمل والجزاء على

العدل المطلق والفضل من الله .. مما يؤلف فى مجموعه خاتمة تتعادل مع مفتتح هذه السورة ، وتتسق مع سياقها العجيب .

* * *

« قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ـ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ـ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ـ لا نكلف نفسا إلا وسعها ـ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » ..

وننظر فى هذه الوصايا فنجدها قوام حياة الضمير، وقوام حياة الأسرة، وقوام حياة المجتمع، وقوام حياة الإنسانية.. مجموعة كلها فى آيتين اثنتين من ذلك الدستور الإلهى الخالد، الذى يرسم للناس منهج الحياة فى كل اتجاه . ولكننا قبل ذلك كله نلمح القاعدة التى تقوم عليها جميعا. فإذا هى العقيدة الخالصة فى الله . عقيدة التوحيد المطلق ، التى يقوم عليها ذلك الدستور كله ، ويقوم عليها نظام الحياة .

« قل : تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم » .. وإذن فليس هذا التحريم اعتسافا ولا جزافا؛ إنما هو التحريم الذى حرمه «ربكم» لا لحرمانكم ولكن لتربيتكم . ومن هنا اختيار معنى الربوبية هنا على معنى الألوهية ، فهناك هدف تربوى رحيم لهذا التحريم . كما أن هناك قاعدة مفهومة لهذا التشريع ، ومرجعا معتمدا يرتكن إليه ، وليس كالذى حرمتم بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير .

« ألا تشركوا به شيئا » .. وهذه هى القاعدة التى يقوم عليها بناء العقيدة ، وترجع إليها التكاليف والفرائض، وتستمد منها الحقوق والواجبات فى الإسلام.. إنها تنقية للضمير من أوشاب الوثنية ، وتنقية للعقل من غبش الخرافة ، وتنقية للمجتمع من تقاليد الجاهلية ، التى تنبع من الهوى والضلالة والتقليد . فهذا الشرك هو المحرم الأول ، لأنه يجر إلى كل محرم . والتوحيد المطلق يجب أن يعمر القلب والعقل والواقع ليرتبط الفرد بالله على بصيرة، وترتبط الجماعة بالمعيار الثابت الذى ترجع إليه فى كافة الروابط بينها والعلاقات. ثم ليتضح الطريق للجميع ويتوحد الهدف، فلا تتمزق طاقاتهم واتجاهاتهم مع تمزق أهواء الآلهة وسدنتها وهى لا تستقر على حال !

« وبالوالدين إحسانا » . . وكثيرا ما يقرن الله هـذا الإحسان للوالدين بالاعتقاد فى وحدانيته وبطاعته . ذلك ليثبت هذا التـكليف مباشرة على قاعدة العقيدة . فلقد علم ـسبحانه ـ أن الحياة فى اندفاعها إلى الأمام ، قد يثقل عليها أن تتلفت إلى الوراء . وأن النبتة الجديدة مدفوعة بالفطرة لأن تمتص من أصلها غذاءها ، ثم لا ترده على هذا الأصل ، إنما تؤديه إلى فروعها الجديدة ، وإلى خليفتها المرتقبة ! من أجل هذا جعل اللفتة إلى الوراء ، والإحسان إلى الجيل الماضى ، مرتبطا ارتباطا مباشرا بالعقيدة فيه لئلا تنساها النبتة الجديدة فى اندفاعها إلى الأمام ! . . ثم إن كانت النشأة الأولى من الله ، فالوالدان سبب للنشأة الثانية ، النشأة المباشرة . ومن ثم ارتباط بين المنشىء الأول ، ومن هما سبب مباشر فى النشأة الثانية فى حياة الإنسان .

« ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقـكم وإياهم » . . فأما هذه فهى نتاج بيئة خاصة كان يواجهها الإسلام : بيئة الوثنية الجاهلية التى كانت تحمل بعض القبائل على وأد البنات من الفقر أو خشية الفقر . وقد ورد النهى هنا بهذه الصيغة ، وورد فى موضع آخر بصيغة أخرى : « ولا تقتلوا أولادكم خشيـة إملاق نحن نرزقهم وإياكم » . وليست واحدة منهما تـكرارا للأخرى . إنما تعالج كل منهما حالة معينة . هنا قال : « لا تقتلوا أولادكم من إملاق » أى بسبب الإملاق ، فالإملاق هنا حاصل . لذلك قال : « نحن نرزقـكم وإياهم » فجعل الرزق للآباء ابتداء ، لأن الفقر الذى يقتلون أولادهم منه واقع بهم . وهناك قال : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » أى خوفا من الإملاق ، فالإملاق إذن متوقع بسبب الأولاد . لذلك قال : « نحن نرزقهم وإياكم » فقدم رزق الأولاد ، لأنهم سبب توقع الفقر ، ليـكف الآباء عن هذا التوقع ، وليضمن للأولاد رزقهم ابتداء مستقلا عن رزق الآباء . . وفى كلتا الحالتين تقوم الضلالة على انعدام الثقة بالله والاتصال به ، فأما حين يرتبط القلب بعقيدة فى الله ، فما أبعده حينئذ عن التفـكير فى قتل حياة خلقها الله ، وما أبعـده عن الخوف من الفقر والرزق بيد الله .

« ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » . . والفواحش كل ما أفحش ، أى تجاوز الحد ، وإن كانت أحيانا تخص بنوع منها هو الزنا . ويغلب على الظن أن يكون هذا هو المعنى المراد فى هذا الموضع ؛ لأن المجال مجال تعديد محرمات بذاتها ، فتـكون هذه واحدة بعينها .

وإلا فقتل النفس فاحشة ، وأكل مال اليتيم فاحشة ، والشرك بالله فاحشة الفواحش . فتخصيص معنى « الفواحش » هنا أولى بالسياق . وصيغة الجمع ، لأن الزنا ألوان وحالات ، ولأن مقدماته ومسبباته قد تكون فى ذاتها فاحشة ، كالتهتك والتبرج ، والاختلاط المثير ، والكلمات والإشارات والحركات الفاجرة ، والإغراء والتزيين والخداع . وسائر ما يحيط بالفاحشة الأولى وكله فواحش منها الظاهر ومنها الباطن ، منها المستسر فى الضمير ومنها البادى على الجوارح ، منها المخبوء المستور ومنها العلنى المكشوف .. وكلها مما ينخر فى جسم الجماعة، فوق ما يلطخ من ضمير الأفراد ، وفوق ما يشوه من معانى الأسرة ويلفق فى الأنساب .. ومن ثم جاءت بعد الحديث عن الوالدين والأولاد . . ولأن هذه الفواحش ذات إغراء وجاذبية ، كان التعبير : « ولا تقربوا » للنهى عن الاقتراب ، سداً للذرائع ، واتقاء للجاذبية التى تضعف معها الإرادة ؛ لذلك حرمت النظرة ـ بعد الأولى العرضية ـ ولذلك كان الاختلاط ضرورة تباح بقدر الضرورة ؛ ولذلك كان التبرج حراما ؛ وكانت الحركات المثيرة والضحكات المثيرة . . كلها ذرائع تتقى . فهذا الدين لا يريد أن يعرض الإنسان نفسه للفتنة ابتداء ، فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود ، ويوقع العقوبات ؛ وهو دين حماية للضمائر والمشاعر ، قبل الحواس والجوارح ؛ وربك أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » . . ولقد سبق النهى عن قتل الأولاد من إملاق . والآن ينهى عن القتل عامة . قتل « النفس » فكأنما كل قتل فردى يقع على جنس « النفس » فى عمومه ، تؤيده آية : « أن من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا [1] » ، فالاعتداء إذن على حق الحياة ذاتها، وعلى النفس البشرية فى عمومها . وعلى هذه القاعده كفل الله حرمة النفس ابتداء . ثم إن هناك طمأنينة الجماعة وأمنها ، وانطلاق كل فرد فيها ليعمل وينتج آمنا على حياته ، لا يؤذى فيها إلا بالحق . والحق الذى تؤخذ به النفس بينه الله فى شريعته ، ولم يتركه للتقدير والتأويل :

فهو القصاص على إزهاق حياة ، حفظا لحق الحياة ذاته ، وكفا عن التمادى فى القتل استهتارا أو ثأرا لا يقف عند حد . وفى القصاص حياة .

---

(١) الجزء السادس من الظلال ص ٥٢ .

وهو القتل فى ردة عن الإسلام منعا للانتقاض على الجماعة الإسلامية بعد الدخول فيها ، ومعرفة أسرارها وعوراتها ، لا إكراها على الدين ، فقد كانت للمرتد حريته فى أن لا يدخل فى الإسلام ابتداء ، فأما خروجه بعد أن يدخل ، فهو فوق ما يحمل من معنى الانتقاض والانضمام إلى معسكر معاد بعد الاطلاع على الأسرار والعورات ، فإنه داعية إلى الفتنة بما يتضمن من معنى الطعن فى الدين الذى اعتنقه ثم فارقه . هذا كله إلى جوار أن الإسلام يعتبر الإيمان حياة وهبت لميت « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس .. الخ » فإذا اختار الموت بعد الحياة فهو وما يختار !

وهو القتل لحد فى زنا المحصن ، الثابت بإقرار غير متهم ، أو بشهادة أربعة رأوا الفعل بوصفه رؤية تحقق . والإسلام يتخذ كل الوسائل الوقائية فى ضمير الفرد وفى حياة المجتمع قبل أن يصير إلى هذا الحد الرادع ، الذى يتضمن معنى البتر لعضو استعصى على الإصلاح بعد كل ما وفر له من ضمانات . والنظام الإسلامى كل يجب الأخذ به جملة ، وحدوده تقام بعد الأخذ بضماناته ووقاياته فى مجتمع إسلامى حقيقى توافرت فيه الضمانات ، وامتنعت فيه الشبهات .

وهو القتل للإفساد فى الأرض ، والخروج بالقوة مع التآمر على نظام الدولة المسلمة المنفذة للشريعة الإسلامية — لا على أى نظام آخر لا ينفذ شريعة الإسلام كاملة لتقيد النص بهذه الحالة : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف .. » — لأن الجماعة المسلمة يجب أن تعيش آمنة ، والسلطة المسلمة يجب أن تكون مطاعة . فهذا هو الوسط الذى يزاول الناس فيه نشاطهم آمنين . فمن أخل بهذا فقد أسقط حرمة نفسه ، بإسقاطه حرمة نفوس الآخرين[1] .

فأما فيما عدا الحالات التى نصت عليها الشريعة[2] ، فحرمة « النفس » محفوظة على هذا الاعتبار .

وقبل أن يمضى السياق فى بيان المحرمات والتكاليف ، يفصل بين هذا القسم والذى يليه

---

(١) يراجع الجزء السادس من الظلال ص ٥٤ .

(٢) ومنها قتل الإمام الثانى إذا بويع للأول . وقتل من يعمل عمل قوم لوط . وقتال مانع الزكاة عمدا كما صنع أبو بكر واعتباره ردة ، فنكتفى بهذا الإجمال .

بقوله : « ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » .. وهذا الفصل يتم على طريقة القرآن فى التعقيب على التكاليف بربط القلب البشرى بالله . وهو هنا توصية من الله . والتوصية فيها معنى الأمر ، ولكنه الأمر اللطيف المؤدى إلى الخير ، فالوصية بطبيعتها للخير . وتنبيه للتعقل وبناء الأخذ والترك على أساس معقول ، لا على الطريقة التى هم فيها سادرون . . ثم إن هناك مجانسة بين أفراد القسم الأول من هذه النواهى والتكاليف . ومجانسة مثلها بين أفراد القسم الذى سيجىء . القسم الأول متعلق بالنفس والعرض وهما قريبان ، والقسم الثانى متعلق بالأموال والأقضية والمعاهدات وهى كلها من واد .

« ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده » . . واليتيم ضعيف فى الجماعة بفقده الوالد الحامى والمنشىء . ومن ثم يقع ضعفه على الجماعة المسلمة ــ على أساس التكافل الاجتماعى الذى يجعله الإسلام قاعدة نظامه الاجتماعى ــ فعلى من يتولاه ألا يقرب ماله إلا بالطريقة التى هى أحسن لليتيم ، فيصونه وينميه حتى يسلمه له كاملا ناميا عند اشتداد قوته الجسمية والعقلية ليحمى ماله ، ويحسن القيام عليه . وبذلك تكون الجماعة قد أضافت إليها عضوا نافعا وسلمته حقه كاملا [١] .

« وأوفوا الكيل والميزان بالقسط . لا نكلف نفسا إلا وسعها » . . وهذه فى المبادلات التجارية بين الناس ؛ وهى فرع من فروع الأمانات ، التى أمر المسلمون أن يؤدوها إلى أهلها؛ ثم هى خلق من الأخلاق الكريمة ألا يحاول أحد احتجاز ما ليس له ، أخذا من حق غيره ؛ ثم هى اليسر فى التعامل والثقة التى تروج بها المعاملات . . كل ذلك فى حدود الطاقة . إذ كان تحرى الحق والإيفاء هو المطلوب ، فأما ما يقع خطأ ، أو ما لا يمكن التحرز منه من الفروق الصغيرة التى تخفى ، فليس داخلا فى الطوق « لا نكلف نفسا إلا وسعها » . وتلك سمة الإسلام فى التيسير ، ما توافرت النية على اتقان العمل والوفاء به .

« وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » . . وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشرى إلى مستوى سامق رفيع ، على هدى من العقيدة فى الله .. فهنا مزلة من مزلات الضعف البشرى.

---

(١) هناك خلاف فقهى حول سن الرشد أو بلوغ الأشد : عند ابن زيد بلوغ الحلم . وعند أبى حنيفة خمس وعشرون عاما . وعند أهل المدينة بلوغ الحلم وظهور الرشد معا بدون تحديد سن .

الضعف الذى يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكامل والامتداد ، بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل ؛ وفى قوة القرابة سند لضعفه كله ، ومن ثم يجعله ضعيفا تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة عليهم أو القضاء بينهم وبين من ليسوا له بأقرباء . وهنا فى هذه المزلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشرى ليقول كلمة الحق والعدل ، على هدى من الاعتصام بالله وحده ، ومراقبة الله وحده ، اكتفاء به من مناصرة ذوى القربى ، وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه ، وهو أقرب إلى البشر من وشائج الدماء والأنساب .

لذلك يعقب على هذا الأمر مذكرا بعهد الله : « وبعهد الله أوفوا » . . ومن عهد الله قولة الحق والعدل ولو كان ذا قربى . ومن عهد الله توفية الكيل والميزان بالقسط . ومن عهد الله ألا يقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن . ومن عهد الله حرمة النفس إلا بالحق . بل من عهد الله ألا يشركوا به شيئا . فذلك هو العهد الأكبر ، المأخوذ على الفطرة البشرية بحكم خلقتها متصلة بالكون الحافل بآيات القدرة ، متصلة بخالقها منذ أن نفخ فيها من روحه . . ذلك عهد الله فى عمومه وفى بعض خصوصياته . ثم هو عهد الله فى المعاهدات والاتفاقات التى يصونها الإسلام ، ويجعل لها حرمة لا تنقض إلا فى حالات خوف الخيانة ، فينبذ العهد إلى أصحابه . فأما فيما عدا هذه الحالة فالعهد مرعى على الإطلاق مع المسلمين وغير المسلمين سواء.

ثم يجىء التعقيب القرآنى فى موضعه بعد التكاليف : « ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » .. لينوط الأمر كله بوصية الله الخيرة، وليستعين الناس على هذه التكاليف بتذكر الله ورقابته وتقواه .

هذه القواعد الأساسية الواضحة التى تكاد تلخص العقيدة الإسلامية وشريعتها الاجتماعية . هذه هى صراط الله المستقيم المؤدى إليه ، وماعدا هذا الصراط فهو سبل متعرجة ملتوية متفرقة ، لاتؤدى إلا إلى الضلال :

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » . .

فهذا هو الصراط الذى لا يلتوى ولا يتعرج . هذا هو الصراط الذى قام عليه دين الله كافة ، وجاء به الإسلام مصدقا للديانات قبله ، جامعا بين صحة العقيدة فى الله ، وسلامة النظم

الموضوعة للحياة [1] . وكلتاهما متصلة بالآخرى ، فلا يمكن الفصل بينهما . وما من شريعة تفصل نفسها عن العقيدة فى الله ثم تستطيع أن تحقق أغراضها مهما تكن هذه الأغراض من السمو والارتفاع . ذلك أن أساس كل تشريع يجب أن يكون قائما فى الضمير ، مرتكنا هناك على أصل ثابت ، لا تزعزعه الأنواء ، ولا يميل مع الأهواء . . لذلك يجىء التعقيب هنا : « ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » فهى التقوى مراقبة لله ، وتوجه إليه وحده دون سواه ، ووقاية من الزلل والضعف والضلال . .

* * *

ولما كان ذلك الصراط قديما ، والديانات قبله كانت فى اتجاهه ، أشار السياق إلى موسى وكتابه وقرنه إلى الكتاب الجديد ـ القرآن ـ المعروض على المشركين ، ليقول لهم : إن الصراط قديم ، وإنه كذلك أصيل ، وإنهم أوتوه كما أوتيه من قبلهم ، كى لا يحتجوا بأنه لم يأتهم كتاب ، وأنه لو جاءهم كاليهود والنصارى لكانوا مؤمنين :

« ثم آتينا موسى الكتاب ، تماما على الذى أحسن ، وتفصيلا لكل شىء ، وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك ، فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . أن تقولوا : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم . فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة . فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ؟ سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون » . .

« ثم آتينا موسى الكتاب » . . وكلة ثم لا تفيد الترتيب الزمنى هنا ، إنما تفيد عطف معنى على معنى . كأنما ليقول : « وهذا صراطى مستقيما . . . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » ثم إن هناك كتاب موسى الذى آتيناه : « تماما على الذى أحسن » إتماما لعمله الحسن الذى أداه من القيام على هدى الله وإخلاص نفسه له « وتفصيلا لكل شىء » فى العقيدة والشريعة ، « وهدى ورحمة » لعل قومه يؤمنون بلقاء ربهم فيرحمهم من عذابه .

---

(١) عن ابن عباس : هذه الآيات المحكمات التى ذكرها الله فى سورة آل عمران (يعنى منه آيات محكمات هن أم الكتاب) أجمعت عليها شرائع الخلق ، ولم تنسخ قط فى ملة . .

هذا الغرض الذى من أجله آتينا موسى الكتاب ، جاء من أجله كتابكم لعلكم تنالون به الهدى والرحمة : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » . . ثم كى لا تكون لكم حجة أو عذر . وحتى لا تقولوا : إنه لم ينزل علينا كتاب إنما جاءت التوراة والإنجيل لليهود والنصارى ، وقد كنا غافلين عن دراستهم لكتابهم ، بلغتهم وفى محيطهم ، فلم يكن لنا علم به ولا خبرة . ولم ننتبه إليه لأنه ليس خاصا بنا ، ولا فى قومنا ، ولا بلغتنا ؛ وأنه لوجاءنا كتاب لكنا أهدى منهم . . فها هو ذا قد جاءكم من ربكم كتاب هو دلالة واضحة بينة لا لبس فيها ولا غموض . وهو هدى لكم مما أنتم فيه من ضلالة ، ورحمة لكم من حياة الجاهلية وعبث الوثنية فى الدنيا ، ورحمة لكم فى الآخرة من العذاب .

فإذا كان ذلك كذلك . فمن أشد ظلما ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها ، وهى معروضة عليه ، تدعوه إلى الهدى والفلاح؟وهنا يجىء التهديد فى أوانه : « سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون » .

ويمضى فى هذا التهديد خطوة أخرى ، ردا على ما كانوا يطلبون من الآيات الخارقة ، وتحذيرا من صدوفهم وتقاعسهم ، والزمن يمضى ، والفرص تفلت ، فيسأل : ما الذى ينتظرونه ليؤمنوا ؟ إنهم إن كانوا ينتظرون الخوارق ، فياويلهم لو جاءت هذه الخوارق . ولن ينفعهم بعدها إيمان :

« هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ، أو يأتى ربك ، أو يأتى بعض آيات ربك ؟ يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيرا . قل : انتظروا إنا منتظرون » . .

إنه التهديد الواضح والمستتر . فيوم تأتيهم الملائكة ستأتيهم لتقبض أرواحهم أو تدمرهم تدميرا . ويوم يأتى ربك سيكون ذلك للحشر والحساب (والتعبير بيأتى فى جانب الله سبحانه مجرد مشاكلة لتصورات البشر فى التعبير) ويوم يأتى بعض آيات ربك ستكون الخاتمة التى لا يقبل بعدها إيمان ، لمن كان لم يؤمن ولم يعمل صالحا ، لأنها تكون فصل الخطاب[1] .

---

(١) وردت آثار كثيرة أن المقصود ببعض آيات ربك بعض علامات الساعة .

فإن كانوا يريدون الانتظار إلى ذلك الوعد ، فدعهم : « قل انتظروا إنا منتظرون » وفى هذا ما فيه من التهديد . .

* * *

بعد ذلك يلتفت السياق إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويمضى معه فى جولة حول عقيدة التوحيد ، تدق حينا فإذا هى إيضاح وتقرير ، وترف حينا فإذا هى أنشودة وتسبيح ، حتى تنتهى السورة بمثل مابدأت من الإيقاع المرفرف العميق :

« إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء ، إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » . .

إنه مفرق الطريق بين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته وشريعته وبين « الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا » سواء من المشركين الذين تمزقهم أوهام الوثنية شيعا وفرقا وعقائد وتقاليد . أو من اليهود والنصارى ممن قسمتهم الخلافات المذهبية مللا ونحلا . أو ممن ينتسبون إلى الإسلام ، ثم يرقعونه بأفكار وبدع ونظم وتشريعات لا ترجع إلى أصل فيه . كل أولئك : « لست منهم فى شىء » براءة كاملة ، وافتراق مطلق ، أنت وقومك وشريعتك . لست منهم ولست مسؤولا عنهم « إنما أمرهم إلى الله » يتصرف فيهم كيف شاء ، يعودون إليه « ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » ووراء الإنباء ما وراءه مما يستحقون .

ثم يقرر قاعدة الجزاء العامة بمناسبة الحديث عن الجزاء :

« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، وهم لا يظلمون » .

والرحمة فى هذه القاعدة بادية ؛ ذلك أن الله واسع الرحمة ؛ وذلك أنه يعرف ضعف البشر ؛ ويعرف النوازع التى تتجاذبهم إلى الخطيئة . وذلك هو الإسلام يعامل هذا الكائن البشرى وفق تكوينه ، وحسب طاقاته ودوافعه . ولا يطالب إليه إلا أن يغالب ويتسامى ويحاول . وكل محاولة ناجحة يضاعفها له ، وكل سقطة وإخفاق يحسبها له واحدة . وهذه تكفرها الحسنة وتمحوها . « وهم لا يظلمون » لا بتكليفهم فوق الطاقة ، ولا بإغفال فطرتهم وما ركب فيها من نوازع ودوافع ، ولا بنقصهم أجرا يستحقونه بالمحاولة الخيرة .

ومن ثم تسبيحة ندية رخية ، يوجه الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إليها ، تحمل إيقاعات شتى ، وتلم بآفاق شتى ، وتلمس الوجدان البشرى لمسات دقيقة عميقة فى مكامن التوحيد :

« قل : إننى هـدانى ربى إلى صراط مستقيم ، دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل : أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ، ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم » ..

« قل : إننى هـدانى ربى إلى صراط مستقيم » .. فهو الإعلان الذى يوحى بالشكر ، ويشى بالثقة ، ويفيض باليقين. اليقين فى بناء العبارة اللفظى ، والثقة بالصلة الهادية ، صلة الربوبية الموجهة المربية ، والشكر على الهداية إلى الصراط المستقيم ، الذى لا عوج فيه ولا التواء : « دينا قيما » وهو دين الله القديم منذ إبراهيم : « ملة إبراهيم حنيفا » وما كان إبراهيم إلا مخلصا العقيدة لله : « وما كان من المشركين » .

« قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » . . فهو التجرد الكامل لله ، بكل خالجة فى القلب وبكل نشاط فى الحياة . إنها تسبيحة التوحيد المطلق تجمع طاقات النفس كلها وتتوجه بها إلى الله « رب العالمين » تجمع الصلاة والعكوف والمحيا والممات وتخلصها لله وحده « لا شريك له » فى إسلام كامل لا يستبقى فى النفس بقية ، ولا يحتجز دون الله شيئا . « وبذلك أمرت » فسمعت واستجبت : « وأنا أول المسلمين » .

« قل : أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ؟ » .. كلمة تتقصى السماوات والأرض ومن فيهن وما فيهن ، وتشتمل كل كائن مما يعلمه الإنسان وما لا يعلمه من الخلق ، ثم تظلها بربوبية الله الشاملة لكل كائن فى هذا الكون الهائل . ثم تعجب فى استنكار : « أغير الله أبغى ربا ؟ وهو رب كل شىء ؟ » أغير الله أبغى ربا وأنا مأخوذ بما أبغيه ، محاسب على ما أكسبه ؟ أفإنسان يعقل ويدرك أن لله المآب وعند الله الحساب وكل فرد مجزى بذنبه لا يحمله عنه سواه ، ثم يتخذ من دون الله الأرباب ؟: «ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ،

ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .. « أغير الله أبغى ربا » وهو الذى استخلف الناس فى الأرض ، ورفع بعضهم درجات فوق بعض لا ليتعالى أحد منهم على أحد ، ولكن ليختبر الله هؤلاء وهؤلاء ، ثم يجازيهم بحسب نتيجة الابتلاء : « إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » .. أغير الله أبغى ربا وهذا كله أمامى ؟ وإن بعضه ليقود إلى التوحيد الخالص والإسلام الكامل ، والإنابة إلى الله وحده بلا شريك ..

ألا إنها تسبيحة التوحيد الرخية العميقة ، تختم بها السورة التى بدأت بالإيقاعات الوجدانية واللمسات القوية للقلب البشرى فى مكامن التوحيد .



بسم الله الرحمن الرحيم

« المص * كتاب أنزل إليك ، فلا يكن في صدرك حرج منه ، لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلا ما تذكرون * وكم من قرية أهلكناها ، فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون * فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين * فلنسألن الذين أرسل إليهم ، ولنسألن المرسلين * فلنقصن عليهم بعلم ، وما كنا غائبين * والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون .

« ولقد مكناكم في الأرض ، وجعلنا لكم فيها معايش ، قليلا ما تشكرون ، ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين * قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين * قال : فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين * قال : أنظرني إلى يوم يبعثون *

قَالَ : إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ : فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ : اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا ، لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا ؛ وَقَالَ : مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ، أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ؛ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا : أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ، وَأَقُلْ لَكُمَا : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ؟ * قَالَا : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ : اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ : فِيهَا تَحْيَوْنَ ، وَفِيهَا تَمُوتُونَ ، وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ .

« يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ، وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ ، ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ، يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا : وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ، وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ؛ قُلْ : إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ * قُلْ : أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ، وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، كَمَا

بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ، إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ .

« يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ : هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ : إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَالْإِثْمَ ، وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

« يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ؛ فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ؟ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ، حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا : أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قَالُوا : ضَلُّوا عَنَّا ، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * قَالَ : ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ؛ حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ : رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ . قَالَ : لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ! * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ : فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ،

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ـ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ـ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ؛ وَقَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ. وَنُودُوا: أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ: أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ قَالُوا: نَعَمْ. فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ * وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ، وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ، قَالُوا: مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ؟ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ: أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ. قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا، وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا. فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا، وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ، هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ؟ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ، يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ: قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ، فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ. قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ».

هذه هى السورة المكية الثانية التى تصادفنا ؛ وهى تتسم بتلك السمات العامة للسور المكية، التى أسلفنا الإشارة إليها فى مطلع الحديث عن سورة الأنعام . ثم تتميز بطابعها الخاص بعد ذلك من ناحية الموضوعات التى تعالجها ، والسياق الذى تسير فيه ، واللمسات التى تتخذها والتى تصور الجو العام للسورة. ولكل سورة من المكيات والمدنيات سواء موضوع رئيسى أو أكثر تعالجه على نحو معين ، ولها كذلك جو معين يظلل الموضوعات التى تعالجها ، ويساوقه ويتناسق معه .

وموضوع هذه السورة الرئيسى هو . الإنذار . . إنذار من يتولون غير الله ، ومن يكذبون بآيات الله ، ومن يستكبرون عن طاعة الله ، ومن ينسون الله ، ومن لا يشكرون نعمة الله . إنذارهم هلاك الدنيا وعذاب الآخرة . ذلك فوق الخزى والهوان والنسيان .

تبدأ السورة بالإنذار: « كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » . . ثم تسلك بهذا المعنى سبلا شتى ؛ وتتصرف فيه تصرفات كثيرة ؛ وترسم له صورا متعددة ؛ وتلمس به المشاعر لمسات مختلفة . فتارة يأخذ السياق شكل القصة: قصة آدم مع إبليس. ثم قصص نوح وهود وصالح وشعيب وموسى مع أقوامهم لتنتهى كل قصة بالعذاب والنكال لمن يخالفون عن أمر الله . وتارة يأخذ شكل مشهد من مشاهد القيامة ، أو مشاهد الاحتضار . . تتكشف فيه مصائر المكذبين أو الذين يتولون غير الله ، ومصائر الطائعين الذين أسلموا قلوبهم كلها لله .

ويتخلل القصص والمشاهد ، ويسبقها ويتلوها — على طريقة القرآن — ما يتسق مع الجو العام من توجيه الأنظار والقلوب، ومن الدعوة إلى التوبة والإنابة قبل أن يحل العقاب ويتحقق الإنذار ، ومن الإشارة إلى عواقب المكذبين من الأمم الخالية التى حق عليها النذير . فى تناسق مطلق بين السياق والقصة ، أو السياق والمشهد ، أو السياق والتوجيهات . فتبدو القصص والمشاهد والتوجيهات كلها أجزاء من هذا السياق العام ، ملونة بلونه ، مظللة بجوه ، محققة للغرض الذى يتجه إليه موضوع السورة الرئيسى من البدء للختام . .

* * *

فأما موضوع هذا الدرس الأول فهو جزء من موضوع السورة العام . يبدأ بإنزال هذا الكتاب ، فيبرز غرضا خاصا من إنزاله : «لتنذر به وذكرى للمؤمنين » ثم يدعو إلى اتباع ما أنزل الله ، ويحذر من يتبعون من دونه أولياء : « ولا تتبعوا من دونه أولياء » ينذرهم عاقبة من قبلهم : « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون» .ثم يقرر دقة الحساب وعدالة الجزاء : «والوزن يومئذ الحق » . ثم يذكر البشر بنعمة استخلافهم في الأرض وتمكينهم فيها ، وقلة شكرهم على النعمة : « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون » ..

ذلك كله تمهيدا لقصة آدم وإبليس ، التى تعرض هنا مفصلة ، من حلقة تالية للحلقة التى بدأت بها فى سورة البقرة ، فهى تبدأ من حلقة الصراع بين إبليس وآدم . لتنتهى بالخروج من الجنة . ثم يتلوها مشهد مطول من مشاهد القيامة، يؤوب فيه الطائعون إلى الفردوس المفقود ، أوبة المغتربين الذين ذاقوا آلام التشريد والتغريب ، ثم عادوا إلى الجوار الأمين ؛ ويبوء فيه العصاة بالعذاب الأليم ، تصديقا للنذير الذى استكبروا عنه أو نسوه ، وتأويلا للإنذار الذى انتظروا تأويله ولم يصدقوه .

وبذلك يبدو التماسك والتناسق بين التمهيد والقصة والمشهد والتعقيب . وهذا ما يحملنا على إطالة هذا الدرس ، نظرا لما بين مقاطعه من تماسك ومن تناسق عميق ..

***

« بسم الله الرحمن الرحيم .. المص .. كتاب أنزل إليك ، فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر به وذكرى للمؤمنين » .

ولقد أسلفنا فى مطلع سورة البقرة التفسير الذى نرجحه لهذه الأحرف تبدأ بها بعض السور . وعليه تكون «المص» مبتدأ . خبره كتاب أنزل إليك . بمعنى أن هذه الأحرف وأخواتها هى الكتاب فى صورته الظاهرة . فما كان من خصائص ذاتية لهذا الكتاب ، تميزه عن كل كتاب يتألف من هذه الأحرف ، فهى من سر الله إذن ومن صنعه ؛ أما المادة الظاهرة للكتاب فهى فى متناول الناس جميعا ، غير أنهم لا يصنعون منها صنع الله . لأنهم بشر ولأنه الله [1] ..

(١) ص ١٥ من الجزء الأول من الظلال .

« كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه » كتاب للإنذار والتذكير . كتاب للصدع به ولمواجهة الناس بما لا يحبون ، ولمجابهة عقائد وتقاليد وارتباطات ، ولمعارضة نظم وأوضاع ومجتمعات . فالحرج فى طريقه كثير ، والمشقة فى الإنذار به قائمة . ولو أنه هو فى ذاته لا حرج فيه ولا عسر ولا مشقة لمن يشرح الله صدورهم له فيؤمنون به ويعملون بمقتضاه. إنما الحرج فى مجابهة عقائد الناس وأوضاعهم ونظمهم وتقاليدهم العميقة الجذور فى مشاعرهم وعواطفهم ، وواقعهم فى الحياة . . « فلا يكن فى صدرك حرج منه » ولا يضق صدرك بما يكلفك من صدع ومواجهة ومجابهة وإنذار . والرسول — صلى الله عليه وسلم — بشر من البشر وإن يكن نبيا رسولا من الله . فلا بد من تشجيعه على احتمال ما يواجهه ، ومن تهوين المشقة عليه بهذا التشجيع من ربه ، وبهذا التذكير بأن الكتاب أنزل إليه «أنزل إليك» . . هو بشخصه وبذاته ، فهو الاختيار والاصطفاء « فلا يكن فى صدرك حرج منه » ومن هذه التكاليف والأعباء . . « لتنذر به وذكرى للمؤمنين » فهو للإنذار والتذكير . إنذار المكذبين وتذكير المؤمنين . والإنذار يبعث الخوف ، والتذكير يستحث الطاعة . ولقد أنزل الكتاب لما هو أوسع من الإنذار والتذكير . أنزل لبيان العبادات والتكاليف التى يذكر بها وينذر مهمليها . وأنزل لبناء المجتمع وتنظيمه والتشريع له والحكم فيه ، وإنذار من يخالف عن نظامه الذى أراده الله له ، ولتذكير من ينسى أو يغفل عنه . . ولكن غرض الإنذار والتذكير يبرز هنا بصفة خاصة لأن سياق السورة كله يتبعه ، ويحققه ، ويبرزه .

لذلك ينتقل من إخبار الرسول بالغرض من الكتاب ، إلى أمر البشر باتباع ما أنزل إليهم فى هذا الكتاب ، ونهيهم عن اتباع الأولياء من دون الله ، وتنبيههم إلى طبيعة النسيان فيهم ليحترسوا من هذا النسيان :

« اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون » . .

وفى الخطاب للرسول — صلى الله عليه وسلم — كان الكتاب منزلا إليه بشخصه « كتاب أنزل إليك » وفى الخطاب للبشر كان الكتاب كذلك منزلا إليهم من ربهم : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم » وكلتاهما حق مع اختلاف الاعتبار ، واختلاف الغرض من هذا الإسناد . فأما الرسول — صلى الله عليه وسلم — فالكتاب منزل إليه باعتبار الرسالة ، لينذر به ويذكر .

وأما البشر فالكتاب منزل إليهم من ربهم باعتبار الطاعة، ليؤمنوا به ويعملوا بما فيه وينهضوا بتكاليفه، التى أرادها لهم « ربهم » للتربية والتقويم. والإسناد فى كلتا الحالتين للاختصاص والتكريم والتشجيع. فالمختص بالاصطفاء والتكليف أجدر بأن ينهض بما اصطفى لأجله، وما كلف بخاصة به.. « قليلا ما تذكرون » فطبيعتكم النسيان وقلة التذكرى. فلهذا يأمركم وينهاكم لعلكم تذكرون..

« قليلا ما تذكرون » ولو كنتم تذكرون لتذكرتم مصارع الأمم قبلكم حين لجت فى العصيان أو لجت فى النسيان :

« وكم من قرية أهلكناها، فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون. فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين »..

« وكم من قرية أهلكناها » فكثيرة تلك القرى التى أصابها الهلاك ـ وسيعرض السياق كثيرا من نماذجها فى الأمم الخالية ـ « فجاءها بأسنا » وأتت عليها قوتنا فى وقت الغفلة والاطمئنان والنسيان إما ليلا فى ساعة السبات، وإما وقت القيلولة نهارا فى ساعة الاستجمام « بياتا أو هم قائلون » وكلتاهما ساعة غرة ونسيان للخطر، واستغراق فى الراحة. والأخذ فيهما أعنف وقعا، وأدعى إلى التذكر والحذر لمن يتذكرون ! ثم ماذا ؟ ثم لم يكن من أولئك المأخوذين على غرة إلا الاعتراف ؛ ولم يكن لهم من دعوى يدعونها إلا الإقرار. والإنسان يدعى كل شيء إلا الإقرار والاعتراف. ولكنهم فى موقف لا يملك مدع فيه دعوى « إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين ».. فيا له من موقف رعيب، ذلك الذى لا يدعى فيه المدعى إلا الاعتراف بالذنب، والإقرار بالظلم، وهو يعلم جزاء الظلم فى يوم الحساب.

ومع ذلك فلن يتركوا لاعترافهم، ولن يكتفى بإقرارهم. بل سيشهر بهم على رؤوس الأشهاد. وستوضع أعمالهم فى ميزان الحساب :

« فلنسألن الذين أرسل إليهم، ولنسألن المرسلين. فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين. والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون »..

فهو السؤال الوافى الدقيق، الشامل للمرسل إليهم والمرسلين. ثمة التحقيق العادل

الذى لا يكفى فيه علم القاضى ـ والقاضى هنا هو العليم الخبير ـ بل لا يكفى فيه اعتراف الجانى ، ولا بد من الأمارات والبينات والشهود .

فهم قد اعترفوا وأقروا ، ولم يكن لهم من دعوى يدعونها إلا هذا الاعتراف والإقرار ، كأنهم حريصون عليه ، مساقون إليه كما يحرص المدعى على دعواه . ثم هم بعد ذلك الاعتراف التلقائى المباشر ، يسألون فيجيبون . ثم يسأل المرسلون فيدلون بما يعلمون . ثم يقص عليهم العليم الخبير قصة ما كان منهم عن علم وشهود : « فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين » . لزيادة التقرير والتوكيد .

عندئذ ـ وقد تم التحقيق العادل الكامل الشامل ـ يجىء دور التقدير . ويعبر عن هذا التقدير بالوزن : « والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه . . . ومن خفت موازينه . . . » ونحن بعد الدراسة الوافية لطريقة القرآن فى التصوير وفى التخييل الحسى والتجسيم نطمئن إلى القول بأن كل المواضع التى جاء فيها ذكر الميزان ، وما إليه من تجسيم وتشخيص لمعنى التقدير ، يمكن تفسيرها على ضوء هذه الطريقة القرآنية المطردة فى القرآن كله من تجسيم المعانى المجردة ، وإعطائها هيئة محسة ، لما لهذه الطريقة من أثر عميق فى المشاعر والنفوس[1] . ونسترح لهذا التفسير . ونكتفى به من عناء الجدل الدخيل على العقلية الإسلامية ، الذى خاض فيه المعتزلة وغيرهم . وإن كنا نفوض العلم المطلق لله ، الذى يعلم وحده حقائق هذا الغيب المحجوب .

« فأما من ثقلت موازينه » فى هذا الميزان الإلهى الدقيق « فأولئك هم المفلحون » الذين شقوا[2] إلى الله طريقهم المستقيم ، ونجوا من الضلال والعذاب ، وفازوا بالرضى والنعيم . « ومن خفت موازينه » فى ذلك الميزان الذى لا يخطىء « فأولئك الذين خسروا أنفسهم » فالخسارة هنا هى خسارة النفس . هى الخسارة التى لا قيمة بعدها لأى كسب . فمن خسر نفسه فقد خسر كل ما تملكه نفسه معها ! خسروا أنفسهم « بما كانوا بآياتنا يظلمون » أى

---

(١) يراجع بتوسع فى هذا المعنى فصل : التصوير الفنى . وفصل طريقة القرآن : فى كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » .

(٢) الفلح فى الأصل اللغوى: الشق . وهو يتسق مع المعنى الاصطلاحى الذى صار إليه اللفظ من الفلاح والنجاة والنجاح .

بسببها وعن طريقها ، فقد كذبوا بها فظلموا أنفسهم وظلموا الحق والواقع ، وظلموا غيرهم من المؤمنين ، بتكذيب عقيدتهم وإيذائهم وحربهم . . وكل هذا يدخل فى معنى الظلم الشامل ، الذى لا يفصله السياق ، لأنه يريد الإجمال ، فى معرض التقدير الأخير بعد العرض والتفصيل .

* * *

وإلى جانب الظلم من الناس يعرض السياق نعمة الله التى لا يشكرها الناس .

« ولقد مكناكم فى الأرض ، وجعلنا لكم فيها معايش ، قليلا ما تشكرون » . .

فهذا الجنس البشرى قد جعله الله سيد هذه الأرض ، ومكنه فيها . أولا بجعل هذه الأرض صالحة لحياة هذا الجنس بجوها وتركيبها واستعدادها ، وثانيا بجعله سيد مخلوقات هذه الأرض، قادرا على تطويعها واستخدامها . ولكن هذا المخلوق قلما يشكر على هذه النعم ، لأنه قلما يتدبر أو يتذكر ، أو ينظر بالعين البصيرة والقلب المفتوح فلا تفقده الألفة والعادة شعوره بهذه النعم المحيطة به فى هذا الوجود .

ومن ثم قصة آدم . لبيان تاريخ التمكين فى الأرض ؛ ولاستعراض قصة الصراع بين الخير والشر ؛ ولكشف منافذ الشيطان إلى النفس ؛ ولتحذير البشر — على ضوء قصة الجنس كله — من الغواية المرصودة لهم فى كل طريق ؛ ولإنذارهم عاقبة اتباع الشيطان ممثلة فى قصة أبيهم آدم كما يعرضها السياق هنا ، ثم فيما يتلوها من مشاهد الاحتضار ومشاهد القيامة فى نهاية المطاف .

وقبل أن نستعرض القصة هنا نكرر ما قلناه عنها فى مطلع سورة البقرة عن هذه القصة الغيبية التى لم يشهدها أحد من بنى آدم فيحكى لنا ما شهد ، وليس لنا عليها من دليل إلا تلك النصوص ، وكل ما عداها فرض يخطىء أو يصيب .

لقد قلنا هناك : « وبعد فهل هى قصة واقعية ذات أحداث وشخوص ؟ ومن هو آدم المعنى فى القصة ؟ وما الجنة التى عاش فيها فترة ؟ ومن هم الملائكة ؟ومن هو إبليس ؟ .. كيف قال الله تعالى لهم وكيف أجابوه ؟ أين كان هذا الحوار ومتى كان ؟ ما الأسماء التى علمها الله لآدم ولم تكن تعلمها الملائكة ؟

« هذه وأمثالها فى القرآن الكريم مما لم يرد فيه تحديد ولا توقيت . . كله غيب من الغيب الذى لا يملك العقل البشرى وسيلة إلى الجزم فيه .

« وإذا كان هذا العقل بوسائله المحدودة لا يدرك مثل هذا الغيب . فليس سبيله إذن أن يتبجح وينكر . فالإنكار حكم يحتاج إلى المعرفة . والمعرفة هنا ليست من طبيعة العقل المحدود الوسائل والآماد .

« إن الاستسلام للوهم والخرافة شديد الضرر والخطورة ، ولكن أضر منه وأخطر التنكر للمجهول كله وإنكاره ، ذلك أنه تنكر للبديهية العقلية الأولى : أن العقل البشرى جزئى وأحكامه نسبية ، وأن المعرفة المطلقة بالقياس إليه مستحيلة .

« فلنأخذ من القصة إذن ما تشير إليه من حقائق كونية وإنسانية ، ومن مبادىء ومثل ، ومن توجيهات فى السلوك والعقيدة . . فذلك وحده أنفع للبشرية وأهدى » . .

وعلى هذا المنهج سنسير فى استعراض القصة هنا . والقصة فى أصلها واحدة . ولكن الحلقات التى تعرض منها فى كل موضع ، وطريقة العرض ، تتبعان السياق والجو العام . وفى هذا يكون اختلاف التفصيلات واختلاف القدر المعروض ، واختلاف نقطة العرض بدءاً وختاما . لأن القصة فى القرآن وسيلة من وسائله إلى إبلاغ عقيدته ، ولمس الوجدان بحقيقته . وليست هدفا بذاته يتوخاه القرآن . .

* * *

ها نحن أولاء فى مطالع التاريخ الإنسانى نشهد قصة البشرية فى بدايتها الأولى ؛ ونستحضر بعين الخيال أحداثها ومشاهدها :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » . .

فما الخلق وما التصوير بعده ؟ هل الخلق هو الإنشاء ابتداء ، أى خلقه من المادة التى منها هذا المخلوق الإنسانى ، والتصوير هو إعطاؤه السمات والصفات الإنسانية ؟ وكيف خلق من المادة التى خلق منها ؟ إنه من سلالة من طين . ولكن كيف بدأ فى هذه السلالة حتى بلغ مرحلة التصوير الإنسانى التى يعبر عنها هنا بلفظ « ثم » المفيد التراخى ؟ إنه ليست هناك إلا الفروض . والنص القرآنى لا يدخل فى التفصيل . فلنقف نحن عند النص القرآنى ، لا نجرى به وراء الفروض .

لقد خلق الجنس البشرى ثم صور، ثم قيل للملائكة: اسجدوا لآدم أصل هذا الجنس وممثله « فسجدوا » . وإلى هنا تتمثل كرامة هذا الجنس البشرى على الله ؛ كما تتمثل الطاعة المطلقة فى ذلك الخلق المسمى بالملائكة ، والذى لا نعلم عنه شيئا إلا ما يخبرنا به الله ..

« إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال : مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » .. وهنا تتمثل لنا طبيعة العصيان والاستكبار ممثلة فى ذلك الخلق الذى يسمى «إبليس» ولا نعلم كذلك عنه شيئا إلا فى حدود هذه النصوص .

وكذلك نجد فى المشهد ثلاثة نماذج من خلق الله : نموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق . ونموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت . وطبيعة ثالثة هى الطبيعة البشرية ، وسنعلم صفاتها المزدوجة فيما سيجىء ! فأما الطبيعة الأولى فهى خالصة لله ، وقد انتهى دورها هنا بهذا التسليم المطلق . وأما الطبيعتان الأخريان ، فسنعرف كيف تتجهان ..

« قال : فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين » ..

وهكذا تلقى إبليس جزاءه عاجلا على العصيان والتمرد والاستكبار ، طردا من جنة الله ـ بالحمل على الآيات الأخرى فى القرآن الكريم ـ لأنه ما يكون له أن يتكبر فيها ، وإدلالا له جزاء على استكباره بغير الحق ، والهبوط قد يكون حسيا وقد يكون رمزيا ، لأنه فى مقام أوطى من ذلك المقام .

ولكن الشرير المعاند لا ينسى أن آدم هو سبب الطرد والغضب ، ولا يستسلم لمصيره البائس دون أن يؤذى هذا الذى من أجله طرد ؛ ثم ليؤدى وظيفته وفق طبيعة الشر المركوزة فيه ؛ وليؤديها على مدى الحياة فى الزمن الممتد الطويل :

« قال : أنظرنى إلى يوم يبعثون . قال : إنك من المنظرين . قال : فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ؛ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين » ..

فهو الإصرار المطلق على الشر ، وهو التصميم المطلق على الغواية . وبذلك تتكشف هذه الطبيعة عن خصائصها الأولى : شر ليس عارضا ولا وقتيا ، إنما هو الشر الأصيل العامد القاصد العنيد . ثم هو التصوير المشخص المجسم على طريقة القرآن فى « التخييل الحسى

والتجسيم [١] » فإبليس فى هذا التصوير يعلن فى تبجح وسوء أدب للخالق الأعلى : أنه وقد حصل على حق البقاء إلى يوم البعث ، سيرد على طرد الله له . هذا الطرد الذى يدعوه هو — توقحا منه — إغواء ، سيرد عليه بإغواء ذلك المخلوق الذى كرمه ، والذى ارتكب هو الضلالة والغواية بسببه . ويجسم هذا الإغواء بأنه سيقعد على صراط الله المستقيم يصد عنه كل بشر يهم باجتيازه — والطريق إلى الله لا يمكن أن يكون حسيا ، لأن الله — سبحانه — جل عن التحيز ، فهو إذن طريق الطاعات المؤدى إلى رضى الله — وبأنه سيأتى هؤلاء البشر من كل جهة : « من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم » وهو استطراد على الطريقة القرآنية فى التخييل الحسى والتجسيم؛ يرسم مشهدا حيا شاخصا متحركا لإطباق إبليس على البشر فى محاولته الدائمة لإغوائهم ، والحيلولة بينهم وبين الهدى والطاعة والاستقامة على الصراط : « ولا تجد أكثرهم شاكرين » .. وهذا هو المقصود . ويجىء ذكر الشكر للتناسق مع ماسبق فى مطلع السورة : « قليلا ما تشكرون » لبيان السبب فى قلة الشكر ، وكشف الدافع الخفى من حيلولة الشيطان ليتيقظ له البشر ، ويأخذوا حذرهم ، حين يعرفون من أين هذه الآفة التى لا تجعلهم من الشاكرين .

ويجاب إبليس إلى ملتمسه ، لأن مشيئة الله اقتضت أن يترك هذا الكائن البشرى يشق طريقه ، بما ركب فى فطرته من استعداد للخير والشر ، وبما وهبه من عقل مرجح ، وبما أمده به من الهدى على أيدى المرسلين . وأن يتلقى الهداية والغواية ، وأن يصطرع فى كيانه الخير والشر ، وأن ينتهى إلى إحدى النهايتين . فتحق عليه سنة الله ، وتتحقق مشيئته سواء ضل أو اهتدى . فعلى السنة الجارية تحقق الهدى أو الضلال .

ولكن السياق لا يصرح بإجابة الله لإبليس فى إيعاده هذا الأخير ؛ إنما يسكت عنه ، ويعلن طرد إبليس طردا لا التماس بعده ولا كلام . طرده مذموما مقهورا ، وإيعاده بملء جهنم منه وممن يتبعه من البشر متساوين :

« قال: اخرج منها مذؤوما مدحورا . لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » ..

وبذلك تم الإنذار للبشر ، ووقع التحذير من اتباع الشيطان؛ تنسيقا مع بدأ السورة ومع موضوعها الأصيل .

---

(١) عنوان فصل فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

وهنا يلتفت إلى آدم وزوجه ـ فنعلم أنه لم يكن فردا ، ولا ندرى كيف صار زوجا ، لأن النص الوحيد المعتمد بين أيدينا يسكت عن هذا التحديد ـ يلتفت إليهما بالإذن بالمتاع الحلال ، وبالتوصية بالحرمان من المحظور . ولا بد من محظور يتعلم منه هذا الجنس أن يقف عند حد ، وأن تكون له إرادة يستعلى بها على الرغبات ، وأن يظل حاكما لشهوته لامحكوما بها كالحيوان . فتلك خاصية الإنسان التى بها يتحقق فيه معنى الإنسان :

« ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هـذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين » .

ويسكت القرآن عن تحديد « هذه الشجرة » لأن تحديدها لايزيد شيئا فى حكمة حظرها . مما يرجح فكرة أن الحظر فى ذاته هو المقصود للمعانى التى أسلفنا . لذلك لا نضرب نحن فى التأويلات التى لاتستند على أساس ، فى تحديد نوع الشجرة وطعم ثمارها ، وشكلها ولونها . . فكل هذا لا يجدى شيئا ، فضلا على أنه ضرب فى التيه بلا دليل .

وبهذا تنتهى الحلقة الأولى من قصة آدم . أو المنظر الأول فى المشهد المعروض . .

ثم جاء الشيطان ، يحقق وعيده ، ويؤدى دوره ، ويقعد على الصراط المستقيم ، ويأخذ على آدم الطريق ، ويتخذ كل وسيلة ، ويضرب بكل سلاح ، لا تتحرج طبيعته اللئيمة عن سلاح :

« فوسوس لهما الشيطان ، ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوآتهما ، وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين » . .

ووسوسة الشيطان لاندرى نحن كيف تتم ، لأننا لاندرى كنه الشيطان ، ولا كنه اتصاله بالإنسان ؛ ولكن إغراء على الشر يقع فى صورة من الصور ، وإيحاء بارتكاب المحظور يكون فى هيئة من الهيئات .. وهكذا وسوس لهما الشيطان ـ ليبدى لهما سوآتهما ـ فذلك كان هدفه وقصده . « قال : ما نهاكما ربكما عن هـذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين » . وهكذا كانت طريقه إلى حملهما على المعصية تأويله

مالم يؤوله الله ، وتعيين حكمة الحظر التي لم يكشفها لهما الله ؛ وكان عليهما ألا يسمعا لمخلوق يفسر لهما حكمة الله بلا دليل من قول الله . ولكنه مس فيهما نقطة ضعف بشرى عميقة . نقطة الرغبة في الخلود ، والرغبة كذلك في الخلاص من القيود كالملائكة المحضين للخير والطاعة بلا ازدواج . وخدعهما بالقسم المؤكد المكرر الذي يعبر عنه بكلمة « قاسمهما » والمقاسمة مفاعلة من الجانبين . فكأن الشيطان قام بدور الاثنين في الحلف المكرر ! بأنه لهما ناصح ؛ فجاءهما من منفذ تعظيم الله والثقة بأن أحدا لا يجرؤ على أن يقسم به غير صادق . والشيطان يدخل إلى كل نفس من المدخل الذي ترضاه !

وهنا وقع المحظور ، وتحقق النذير ، وجر آدم وزوجه على أنفسهما القدر المقدور :

« فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ؛ وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال: اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال : فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » . .

لقد خدعهما وغرهما ، وأنزلهما بهذا الغرور من طاعة الله إلى معصيته : «فدلاهما بغرور» . . « فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » . . فقد شعرا إذن بأن هنالك سوآت تدارى ، وحركة الخصف من ورق الجنة توحى بأنها السوآت الحسية الجسدية التي يخجل الإنسان من تعريها . فكيف ظهرت لهما هذه السوآت ؟ وما علاقة ظهورها بالأكل من الشجرة المحظورة ؟ إن الآية التالية في السياق تحذر بني آدم أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة «ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما» وهذا معناه أنه كان لهما لباس يستر هذه السوآت ، وأن هذا اللباس نزع عنهما عند المعصية ، فاطلعا على سوآتهما المستورة ، وراحا يأخذان من ورق الجنة ويلفقان بعضه ببعض لمواراة السوآت المكشوفة . وإلى هنا نقف لأن النص لا يعطينا وراء هذا شيئا . والنص هو سندنا الوحيد الذي لا نملك سندا سواه من القرآن أو السنة الصحيحة (١) . .

---

(١) توجد روايات متعددة عن بعض الصحابة — رضوان الله عليهم — ولكننا نأخذ بالأحوط في هذه الغيبيات فنقف عند حدود النصوص القرآنية والنبوية . ولا زيادة .

« وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ »
إنه العتاب والتأنيب على المعصية وعلى إغفال النصيحة . . أما كيفية النداء ، وكيف سمعاه أو أدركاه فمسكوت عنه كذلك ؛ والبحث فيه لا يزيد شيئا على الغرض المراد من القصة فى هـذا السياق .

« قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . . وهنا تدركهما خصيصة الإنسان التى تصله بالله ، وتفتح له المسالك والأبواب . . الاعتراف والندم والاستغفار . . « ربنا ظلمنا أنفسنا » بنسيان النصيحة ومخالفة الأمر ، واتباع الشيطان ، والانخداع بالعدو الذى حذرتنا مكره وشره . « إن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » فلا حول لنا ولا قوة ، ولا عاصم لنا من عقابك إن لم تغفر لنا ، ولا اطمئنان لنفوسنا إن لم ترحمنا . فهو الاستسلام والإنابة ؛ مع الخجل من طلب المغفرة والرحمة ، وتركهما لله . .

وهنا يتقرر المصير الأخير ؛ ويجد آدم وزوجه جزاءهما فى الهبوط والحياة فى الأرض ، حيث تكون بينهما وذريتهما وبين عدوهم الأكبر جولات وجولات إلى أن يشاء الله :

« قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال: فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » . .

وهبطوا جميعا . آدم وزوجه وإبليس وقبيله . هبطوا ليصارع بعضهم بعضا ، وليعادى بعضهم بعضا ، ولتدور المعركة بين خليقتين وطبيعتين : إحداهما ممحضة للشر ، والأخرى مزيج من الاستعداد للخير والشر .

وكتب على آدم وذريته أن يستقروا فى الأرض ويمكنوا فيها ، ويستمتعوا بما فيها إلى حين . وكتب عليهم أن يحيوا فيها ويموتوا ، ثم يخرجون منها يوم البعث والنشور .

وانتهت الجولة الأولى لتبعها جولات وجولات ينتصر فيها الإنسان ماعاذ بربه ، وينهزم فيها ما تولى عدوه . وهذا موضع العبرة الأصيل .

* * *

والآن وقد انتهت الجولة الأولى فى ساحة الملأ الأعلى ، فإننا نهبط إلى الأرض ، ويتوجه

السياق إلى بنى آدم ، الذين عرض عليهم قصتهم الأولى ، يذكرهم نعمة الله عليهم فى حياتهم الدنيا ؛ ويحذرهم الشيطان الذى أخرج أبويهم من الجنة ؛ ويدحض المفتريات التى يقولها بعضهم دفاعا عما يرتكبه ـ بوسوسة من الشيطان ـ من فواحش ومحرمات ؛ ويبين لهم المباح والمحظور على هدى من الله ونور ؛ ويكشف لهم عن مصائر الطائعين والمكذبين للرسل الذين يقصون عليهم آيات الله ، مصائرهم عند الموت وعند البعث ويوم الحساب .. فلنمض مع السياق فى هذه التعقيبات المنتزعة من قصة البشرية الأولى :

« يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ قل : أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين . كما بدأكم تعودون . فريقا هدى ، وفريقا حق عليهم الضلالة . إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون » ..

فالمنة الأولى لله على البشر أن رد عليهم اللباس بعد أن نزعه الشيطان عن أبويهم ليسترهم ؛ وجعل لهم بجانبه رياشا للزينة لا لمجرد الستر . والتعبير بأنزلنا عليكم يفيد ـ فيما يفيد ـ خصوصية البشر باللباس والرياش . ثم لباس آخر خير وأكمل من اللباس والرياش . إنه لباس يستر النفس ، ويقيها الدنس والرجس ، إنه لباس التقوى . والتقوى يعبر عنها بأنها لباس ، ويعبر فى موضع آخر بأنها زاد .. مشاكلة للسياق الذى ترد فيه هنا أو هناك ، من باب تجسيم المعنويات وتنسيقها مع الجو العام على طريقة القرآن (١) .. « ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » فلا يعودوا إلى النسيان الذى أوقع أبويهم فى العصيان .

لذلك يتجه السياق نداء آخر إلى بنى آدم ألا يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما . ذلك ليحذروا مداخل الشيطان . وليعتبروا بالجولة

---

(١) فصل التناسق الفنى فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

الأولى التى انتهت بالفتنة والخروج من الجنة ونزع اللباس وانكشاف السوآت . فالآن وقد سترهم الله بما أنزل عليهم من لباس ورياش ، وقد ستر أرواحهم وجملها ووقاها الدنس بلباس التقوى . الآن فليحذروا الفتنة مرة أخرى ، وليحذروا انكشاف السوأة ، وليعتزوا بلباس التقوى ، وهو خير وأحلى .. ويزيدهم يقظة للشيطان وحذرا فيقول : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » . . فهو وقبيله مجهزون إذن بقدرة على رؤية البشر ، فهم قادرون على أن ينالوا البشر . بينما هؤلاء لم يجهزوا بالقدرة على رؤية الشيطان وقبيله ، فهم عاجزون عن دفع أذاهم إلا بالالتجاء إلى الله ، وإلا بتذكره وتقواه. والله ولى المؤمنين، فأما الذين لا يؤمنون فقد تركهم للشياطين : « إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » .. والشيطان عدو لآدم وذريته . فهو إذن تسليم الذين لا يؤمنون لعدوهم المبين !

هؤلاء الذين لا يؤمنون ، الذين تركوا لعدوهم الأكبر يتولاهم ، ويقودهم إلى المصير الذى أنذر هو به ، والذى أوعدهم الله بعقابه عليه . هؤلاء : « إذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » والفاحشة هى كل فعل يفحش أى يتجاوز حدود الله . واللفظ فى هذا الموضع على إطلاقه فى معناه العام . إذا فعلوا فاحشة احتجوا لها بأنهم وجدوا آباءهم عليها ، وأنهم فعلوها بأمر من الله . ذلك كما كان المشركون فى الجاهلية يطوفون بالبيت عرايا ، ثم يدعون هذه الدعوى . وقد وردت روايات فى أنهم مقصودون بهذه الآية ؛ ويرجح هذا أنها واردة فى سياق تذكير الله لبنى آدم بنعمة اللباس الساتر للسوآت ، ولكن نص الآية عام ينطبق على هذه الحالة كما ينطبق على سواها .

ويعاجلهم القرآن بالرد : «قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله مالا تعلمون؟» فالفحشاء فى طبيعتها تجاوز واعتداء على حدود الله . فهل يأمر الله بالاعتداء على حدوده ؟ ! سبحانه وتعالى عن هذه المفارقات : « قل : أمر ربى بالقسط » بالاعتدال والعدل والحق ، لا بالفحش والتجاوز والاعتداء . وأمر بالاستقامة فى الاتجاه إلى الله وحده بالصلاة : « وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد » وأمر بإخلاص الدين له وإخلاص التوجه إليه : « وادعوه مخلصين له الدين » .

ثم تعقيب على هـذا بأن الله بدأهم والله يعيـدهم ، فهو قادر على الثانية قدرته على الأولى . وسيعودون فريقين : « فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة » أما العلة فى استحقاقهم الضلالة فهو توليهم الشيطان عدو الإنسان : « إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون ».. ومن اتخذ الشيطان وليا من دون الله ، فقد استحق الضلالة بتوليه غير الله، وتوليـه عدوا حذره الله إياه . وهنا نلمح التناسق بين هـذا التعقيب والقصة التى سلفت ، ثم بينه وبين مطلع السورة بعد النذير : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء . قليلا ما تذكرون » ..

* * *

ثم يتكرر النداء إلى بنى آدم ، دعوة فى هذه المرة إلى الاستمتاع الحـلال ، بزينة الله التى أخرجها لعباده ، وعرفهم إياها ، من اللباس والرياش ، وبالطيبات من الرزق فى الطعام والشراب ، فى غير إسراف ولا اعتداء على حدود الله . فالله لم يحرم زينته الحلال ، ولم يحرم الطيب من الرزق ، ولم يرد بالناس الشظف والترتيب والحرمان ؛ إنما كره لهم الإسراف لأنه فحش وتجاوز للقصد ،وكره لهم الترف لأنه مفسد للفطرة،وكره لهم أن يكونوا عبيدا للمتاع لايملكون الاستغناء عنه عند ما يجب الاستغناء . والفرد إذا استعبد لمتاع فقد إرادته ، وتعرض للذل وللتنازل عن مقدساته لمن يملك أن يحرمه متاعه الذى صار له عبدا . فأما إذا ظل يستمتع فى اعتدال مالـكا لأمره ، قادرا على الاستغناء عن المتاع حين يشاء ، فلا حرج حينئذ فى المتاع ، بل هو مستحب ، لأن الله يحب أن يرى نعمته على عبده.ومن ثم نجـد هنا نداء لبنى آدم أن يأخذوا زينتهم عند كل صلاة ؛ ونجد استنكارا لتحريم طيبات الحياة ؛ ونجد بيانا لما حرم الله .

« يابنى آدم خذوا زينتـكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين . قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصـل الآيات لقوم يعلمون . قل : إنما حرم ربى الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون » ..

وأخذ الزينة عند كل مسجد ـ أى عند كل سجود أى عند كل صلاة ـ أمر يزيد على مجرد ستر العورة ؛ فهو دعوة إلى التزين فى حدود الاعتدال اللائق . كما أن ذكر « كل مسجد » هنا لا يدل على الاقتصار على هذه المناسبة ، إنما نلمح فيه إرادة تطهير هذه الزينة فى نفوس الناس ومنحها صفة الرضى الإلهى عنها ، إذ كانت تتخذ والمرء مقبل على ربه بصلاته . أن كانت موضع شبهة إذ أنها من زينة الدنيا الحبيبة إلى النفس البشرية ، فقد تكون مكروهة فى مواطن العبادة . فجاء هذا النص لا ليمنع الكراهية ، بل ليدعو إلى الزينة المعتدلة فى مواطن العبادة . وهذا هو الإسلام الذى يكره للناس الشظف والحرمان ، كراهيته للترف والإسراف فى الاستمتاع سواء . . « وكلوا واشربوا » . . « ولا تسرفوا » . . لا فى زينة ولا فى طعام ولا فى شراب . فالقصد والاعتدال هما سمة الإسلام ، والتوازن هو خصيصته التى تنافى التفريط والإفراط . « إنه لا يحب المسرفين » .

ولا يكتفى السياق بالدعوة إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد ، وإلى الاستمتاع بالطيب من الطعام والشراب .. بل يستنكر تحريم الزينة ؛ ويبرز هنا أن هذه الزينة أخرجها الله وكشفها وعرفها لعباده ، ليستمتعوا بها لا ليحرموها ؛ فمن المستنكر أن يحرم أحد ما أخرجه الله للناس من الزينة ، أو من طيبات الرزق ـ ويدخل فى هذا الاستنكار ما كان مشركو العرب يحرمونه على أنفسهم من اللباس فى طوافهم بالكعبة ومن الأطعمة فى أثناء الحج ، مما روى أن هذه الآيات نزلت بشأنه ـ ثم يبقى النص عاما يشمل جميع الحالات .

ويتبع الاستنكار بتقرير أن هذه الزينة من اللباس وهذه الطيبات من الرزق هى حق للذين آمنوا . ولئن كان سواهم يشاركهم فيها فى الدنيا ، فهى خالصة لهم يوم القيامة ، ولن يكون الشأن كذلك ثم تكون محرمة بحال من الأحوال « كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » فالأمر يحتاج إلى العلم به ، وإلى معرفة ما أحل الله وما حرم ليكون الناس على بينة من ذلك وعلم .

فأما الذى حرمه الله حقا ، فليس هو الزينة المعتدلة من اللباس ، وليس هو الطيب من الطعام والشراب : « قل : إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم ، والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » . . هذا هو الذى حرمه الله : الفواحش من الأعمال المتجاوزة لحدود الله ، ظاهرة للناس أو خافية

عليهم ، ارتكبها الإنسان بجوارحه أم بمشاعره . والإثم وهو كل معصية لله على وجه الإجمال . والبغى بغير الحق وهو الظلم الذى يخالف الحق والعدل . والإشراك بالله ما لا قوة له ، لأن الله لم يمنحه قوة . والقول على الله بغير علم من تحليل وتحريم وغيرهما . . فذلك هو الذى حرمه الله . وهو جامع لكل محرم يكرهه الله .

* * *

فإذا انتهى من استنكار تحريم الحلال ، وبيان ما حرم الله من فواحش وآثام ، لوح لهم بأن أجلهم فى هذه الأرض محدود ، وبأنهم قادمون على ربهم ، مسؤولون عما كسبوا من حلال ومن حرام ، وقد بين لهم الرسل الحلال والحرام . وذلك تمهيداً لعرض مشهد الاحتضار ، ومشهد القيامة مفصلا مطولا حيا متحركا شاخصا . .

لقد كانت الجولة الأولى فى الصراع بين آدم والشيطان فى ساحة الملأ الأعلى . وكانت الجولة الثانية على الأرض التى مكن الله فيها للإنسان ، وترك له اختيار طريق الله أو طريق الشيطان . . ثم يأتى موعد القدر والحساب وموعد الحكم والجزاء :

ومن هنا إلى نهاية هذا الدرس ، نحن مع المشهدين المطولين الفائضين بالحركة ، بعد ذلك التمهيد القصير :

« ولكل أمة أجل . فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؛ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . .

لكل أمة أجل . إما لكل جيل من الناس بالموت المعروف . وإما لكل أمة من الأمم بمعنى انتهاء القوة فى الأرض والخلافة ، ثم تدول دولتها وتذهب فى الموعد المعلوم . وذلك لا ينفى الأسباب التى تؤدى إلى النهاية . فالأسباب تقع ، والسنة الجارية تجرى ثم تؤدى إلى النهاية فى موعدها المعلوم ، للعليم الخبير . . والرسل تأتى للناس لتبين لهم ، والناس بعد ذلك متروكون لأفعالهم ، ونتائج هذه الأفعال تمضى وفق سنة الله الجارية حتى تؤدى إلى غاياتها المقدرة ، لا تتخلف لأن الله سبحانه شاء لها أن تجرى وفق قانون أراده وأنفذه : « فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

لأن تقوى الله تقودهم إلى الطيبات ؛ وتنأى بهم عن المحرمات والآثام ؛ وتنتهى بهم إلى الأمن والرضى والرضوان . « والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . . » لأن التكذيب والاستكبار فوق أنه فى ذاته إثم عظيم ، فهو يجر كذلك إلى آثام عظام ، ومن ثم تحق عليهم صحبة النار ، وفق السنة التى أجراها الله . .

ومن هنا يأخذ السياق فى عرض مشهد الاحتضار ، ومشهد الحشر والحساب ، ومشهد التقدير والجزاء . . كأنها تفصيل لذلك الإجمال ، وتصوير لأحوال المتقين والمكذبين بعد الأجل المعلوم . فلنستعرض هذه المشاهد كاملة ، معروضة بطريقة القرآن التصويرية المعجزة :

« فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؟ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ، حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ، قالوا : أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . قال : ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار ؛ كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا اداركوا فيها جميعا ، قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا ، فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال : لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم : فما كان لكم علينا من فضل ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون . إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ، وكذلك نجزى المجرمين . لهم من جهنم مهاد ، ومن فوقهم غواش ، وكذلك نجزى الظالمين . والذين آمنوا وعملوا الصالحات — لا نكلف نفسا إلا وسعها — أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . ونزعنا ما فى صدورهم من غل ، تجرى من تحتهم الأنهار ، وقالوا : الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا الله . لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون . ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ قالوا : نعم . فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وهم بالآخرة كافرون . وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ، ونادوا أصحاب الجنة : أن سلام عليكم . لم يدخلوها وهم يطمعون . وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ،

أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ؛
ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . قالوا : إن
الله حرمهما على الكافرين ، الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، فاليوم ننساهم
كما نسوا لقاء يومهم هذا ، وما كانوا بآياتنا يجحدون » .

لقد عنى القرآن بمشاهد القيامة : البعث والحساب ، والنعيم والعذاب . فلم يعد ذلك العالم
الآخر الذى وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر موصوفا فحسب ، بل عاد مصورا محسوسا ،
وحيا متحركا ، وبارزا شاخصا ؛ وعاش المسلمون فى هذا العالم عيشة كاملة : رأوا مشاهده
وتأثروا بها ، وخفقت قلوبهم تارة ، واقشعرت جلودهم تارة ، وسرى فى نفوسهم الفزع مرة ،
وعاودهم الاطمئنان أخرى ، ولفحهم من النار شواظ ، ورف إليهم من الجنة نسيم . ومن ثم
باتوا يعرفون هذا العالم تمام المعرفة ، قبل اليوم الموعود [1] .

وربما كانت هذه المشاهد — المعروضة هنا — أطول مشاهد القيامة فى القرآن ، وأحفلها
بالمناظر المتتابعة ، والحوار المتنوع . وهى تجىء فى السورة — كما أسلفنا — تعقيبا على قصة آدم
وخروجه من الجنة بإغواء الشيطان له ولزوجه ؛ وتحذير الله لأبنائه أن يفتنهم الشيطان كما أخرج
أبويهم من الجنة ؛ وإخبارهم بأنه سيرسل إليهم رسلا يقصون عليهم آياته .. ثم يأخذ فى عرض
مشاهد القيامة ، فإذا الذى يقع فيها مصداق لما ينبىء به هؤلاء الرسل ؛ وإذا الذين يطيعون
الشيطان فيكذبون قد حرموا العودة إلى الجنة ؛ وفتنوا عنها كما أخرج الشيطان أبويهم
منها ؛ وإذا الذين خالفوا الشيطان فأطاعوا الله ، قد ردوا إلى الجنة ، ونودوا من الملأ الأعلى :
« أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » فكأنما هى أوبة المهاجرين ، وعودة المغتربين
إلى دار النعيم .

وفى هذا السياق بين القصة السابقة ، ومشاهد القيامة اللاحقة من التناسق الفنى ما فيه .
فهى قصة تبدأ فى الجنة على مشهد من الملائكة — يوم أن خلق الله آدم وزوجه وأسكنهما
الجنة ، فدلاهما الشيطان عن الطاعة ، وأخرجهما من النعيم — وتنتهى كذلك فى الجنة على

---

(١) نقلا من كتاب مشاهد القيامة فى القرآن ص ٣٧ من الطبعة الأولى وص ٣٨ من الطبعة الثانية .

مشهد من الملائكة فى اليوم الآخر ، فيتصل البدء بالنهاية ، ويضمان بينهما فترة الحياة الدنيا فيما لا يتجاوز صفحتين من كتاب ، حافلتين بالمشاهد ، ومنها مشهد الاحتضار ، وهو يتسق فى الوسط مع البدء والنهاية كل الاتساق .

والآن نأخذ فى استعراض هذه المشاهد العجيبة :

ها نحن أولاء أمام مشهد الاحتضار . احتضار الذين افتروا على الله كذبا بالتحريم والتحليل أو سواهما ، أو كذبوا بآياته . أولئك الذين ليس أظلم منهم أحد ، وقد نالوا نصيبهم من الكتاب . وهو نصيب الحجة عليهم ، وقطع معاذيرهم أن يقولوا : ما كنا نعلم ، أو ما جاءنا من بشير ولا نذير .

ها نحن أولاء أمام مشهد الاحتضار — وهو برزخ بين الدنيا والآخرة — احتضار الذين افتروا على الله الكذب أو كذبوا بآياته ، وقد حضرتهم رسل ربهم يتوفونهم ، ويقبضون أرواحهم ، فدار بين هؤلاء وأولئك حوار : « أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ » أين دعاواكم التى افتريتم على الله ؟ وأين آلهتكم التى اعتصمتم بها فى الدنيا ، وفتنتم بها عن الإيمان بالخالق الأعلى ؟ أين هى الآن فى اللحظة الحاسمة التى تسلب منكم فيها الحياة ، فلا تجدون لكم عاصما من الموت يحفظ عليكم الحياة ، أو يعصمكم من الله ؟ ويكون الجواب هو الجواب الوحيد ، الذى لا معدى عنه ، ولا مغالطة فيه : « قالوا : ضلوا عنا » وغابوا ، فلا نحن نعرف لهم مقرا ، ولا هم يسلكون إلينا طريقا . فما أضيع عباداً لا تهتدى إليهم آلهتهم ، ولا تسعفهم فى مثل هذه اللحظة الحاسمة ! وما أخيب آلهة لا تهتدى إلى عبادها فى مثل هذا الأوان ! واليوم إذن لا جدال ولا محال : « وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » .

فإذا انتهى مشهد الاحتضار ؛ فنحن أمام المشهد التالى له فى النار — ويسكت السياق عما بينهما لأن المراد هو إبراز العاقبة ومنتهاها ، فالزمان بين الاحتضار والبعث يطوى هنا طيا ، وكأنما يؤخذ أولئك المحتضرون من الدار إلى النار ! « قال : ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار » انضموا إلى زملائكم من الجن والإنس ، أليس إبليس هو الذى عصى ربه ؟ وهو الذى أخرج آدم من الجنة وزوجه ؟ وهو الذى أغوى العصاة من أبنائه ؟

وهو الذى أوعده الله أن يكون هو ومن أغواهم فى النار ؟ فليدخلوا جميعا سابقين ولاحقين فى النار التى كانوا يوعدون !

ولقد كانت هذه الأمم فى الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها . ويملى متبوعها لتابعها. فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها ، وكيف يكون التنابز فيها : « كلما دخلت أمة لعنت أختها » فما أبأسها من عاقبة تلك التى يلعن فيها الأخ أخاه ، ويتنكر فيها المولى لمولاه ! « حتى إذا اداركوا فيها جميعا » وتلاحق آخرهم وأولهم ، واجتمع قاصيهم بدانيهم ، بدأ الخصام والجدال : « قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا ، فآتهم عذابا ضعفا من النار » . وهكذا تبدأ المهزلة الأليمة ، ويكشف المشهد عن الأصفياء والأولياء ، وهم متنا كرون أعداء ، يتهم بعضهم بعضا ، ويطلب له من « ربنا » شر الجزاء . من « ربنا » الذى كانوا من قبل ينكرونه ، وهم اليوم يتوجهون إليه بالدعاء ! فيكون الجواب طمأنة للداعين باستجابة الدعاء ! ولكنها طمأنة ساخرة واستجابة مؤلمة : « قال : لكل ضعف ، ولكن لا تعلمون » فاطمئنوا ! فأنتم وهم ستنالون هذا الضعف الذى تطلبون ! وكأنما شمت المدعو عليهم فى الداعين ، حينما سمعوا جواب الدعاء ، فإذا هم يتوجهون إليهم بالشماتة يقولون : لستم بأفضل منا فتنجوا ، ولسنا أولاكم بالعذاب فكلنا فيه سواء : « وقالت أولاهم لأخراهم : فما كان لكم علينا من فضل ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » !

وبهذا ينتهى ذلك الجانب الساخر الأليم ، ليتبعه تقرير وتوكيد لهذا المصير ، الذى لن يتبدل — وذلك قبل عرض الجانب الآخر الذى يصور المؤمنين فى جنات النعيم — : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة ، حتى يلج الجمل فى سم الخياط » . ودونك فقف بخيالك ماتشاء أمام هذا المشهد العجيب . مشهد الحبل الغليظ (الجمل) تجاه ثقب الإبرة الصغير[1] ؛ فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الحبل الغليظ ،

---

(١) بعض المفسرين يفسر الجمل هنا بأنه الحيوان المعروف . ولكن الذى يدرس طريقة التصوير فى القرآن ، وتناسق أجزاء اللوحة ، ووحدة الجو فى المنظر ، يلحظ التنافر بين الجمل والإبرة فى لوحة رسم ، كما يلحظ التناسق إذا كان الجمل هنا هو الحبل الغليظ — وهو معنى لغوى من معانى كلمة جمل — أمام ثقب الإبرة الذى يدخل منه الخيط عادة . والمعنى المقصود هو الاستحالة . والاستحالة قائمة فى دخول الحبل الغليظ من سم الخياط ، فمعنى الاستحالة يتحقق بهذا التفسير ، ويزيد عليه تناسق الصورة على طريقة القرآن فى التصوير .

فانتظر حينئذ أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين ، وأن يدخلوا إلى جنات النعيم ! أما الآن ، وإلى أن يلج الجمل فى سم الخياط ، فهم فى النار التى تداركوا فيها جميعا ، وتلاعنوا فيها ، وثار ما ثار بينهم من الجدل والخصام . « وكذلك نجزى المجرمين » . وإليك صورتهم فيها : « لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش » فالنار لهم فراش ، يدعوه للسخرية مهادا — وما هو مهد ولا لين ولا مريح — والنار لهم غطاء ، يغشاهم من فوقهم : « وكذلك نجزى الظالمين » !

والآن فلننظر إلى الجانب الآخر : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » قدر ما استطاعوا وفى حدود الطاقة : « لا نكلف نفسا إلا وسعها » .. « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » فهم أصحابها وملاكها ، أورثوها مرة أخرى جزاء ما عصوا الشيطان ، الذى أخرج أبويهم منها .

وإذا كان أولئك الكافرون المكذبون يتلاعنون فى النار ويتخاصمون ، وتغلى فى صدورهم السخائم والأحقاد بعد أن كانوا أصفياء أولياء . فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الجنة إخوان متصافون ، يرف عليهم السلام والولاء : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » وهم فى دار السلام والإخاء . وإذا كان أولئك يصطلون النار من فوقهم ومن تحتهم ، فهؤلاء « تجرى من تحتهم الأنهار » فترف على الجونسمات رخية وندى بليل . وإذا كان أولئك يشتغلون بالتنابز والخصام ، فهؤلاء يشتغلون بالحمد والاعتراف : « وقالوا : الحمد لله الذى هدانا لهذا — وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله — لقد جاءت رسل ربنا بالحق » وهذا مصداقه فالحمد لله . وإذا كان أولئك ينادون : ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار » فإن هؤلاء ينادون بالتأهيل والتكريم : « ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » .. فإذا هو التقابل المطلق بين أولئك وهؤلاء .

ثم يستمر العرض ، فإذا نحن أمام مشهد لاحق للمشهد السابق . لقد اطمأن أصحاب الجنة إلى مصيرهم ، واستيقن أصحاب النار من النار ؟ وإذا الأولون ينادون الآخرين : « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ » . وفى هذا السؤال من التهكم المر ما فيه ، فالمؤمنون على ثقة من تحقق الوعيد كتحقق الوعد

سواء . ولكنه سؤال ! ومجيء الجواب كلمة واحدة : « قالوا : نعم » حيث لا مجال لنكران أو محال . وعندئذ ينتهى الجواب ، ويقطع الحوار : « فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وهم بالآخرة كافرون » . . وفى هذا الصد عن سبيل الله وإرادتهم للطريق معوجة غير مستقيمة وكفرهم بالآخرة يتجلى الظلم أشنع ، الظلم بكل معناه .

ثم يتوجه النظر إلى جانب من الساحة — ساحة العرض الفسيحة — فإذا مشهد آخر . مشهد الأعراف الفاصلة بين الجنة والنار ، وكأنما هى نقطة مرور ، يفرز فيها أهل الجنة وأهل النار ، ويوجه كل إلى مستقره هنا أو هناك : « وعلى الأعراف رجال » — روى أنهم الذين تعادلت حسناتهم وسيئاتهم ، فلم تصل بهم تلك إلى الجنة ، ولم تؤد بهم هذه إلى النار ، وهم بين بين ينتظرون فضل الله — وهم « يعرفون كلا بسيماهم » ربما ببياض الوجوه وسوادها ، أو بأية علامة يوسم بها أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فقد جاء أن أهل النار يوسمون على أنوفهم التى كانوا بها يشمخون [1] ، فها هم اولاء يتوجهون إلى اهل الجنة بالترحيب والسلام : « ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم » يقولونها وهم يطمعون أن يدخلهم الله الجنة مثلهم : « لم يدخلوها وهم يطمعون » . فإذا وقعت أبصارهم على أصحاب النار ، وكأنما يصرفون إليهم صرفا لا عن إرادة منهم : « وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار » استعاذوا بالله أن يكون مصيرهم معهم : « قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين » .

ثم يبصرون برجال من كبار المجرمين ، معروفين لهم ممتازين ، فيتجهون إليهم بالتبكيت والإيلام : « ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة » — يعنون المؤمنين — انظروا أين هم الآن ؟ إنهم فى الجنة فى أمن وسلام : « ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » .

وأخيرا ها نحن أولاء نسمع صوتا آتيا من النار ، ملؤه الرجاء والاستجداء : « ونادى

---

(١) فى سورة ن والقلم : « سنسمه على الخرطوم » .

أصحاب النار أصحاب الجنة : أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » . وها نحن أولاء نتلفت إلى الجانب الآخر ، ننتظر الجواب ؛ فإذا هو المعذرة والتذكير : « قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، وغرتهم الحياة الدنيا » .

ثم إذا صوت البشر عامة يتوارى لينطق صوت الجلالة الكبرى : « فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ، وما كانوا بآياتنا يجحدون . ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل : قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل . قد خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون » . .

وهكذا ينتهى ذلك الاستعراض الكبير ، ويجىء التعقيب عليه متناسقا مع الابتداء . [تذكيرا بهذا اليوم الذى مرت مشاهده ، وتحذيرا من التكذيب بآيات الله التى جاء بها الرسل ، انتظارا لتأويل هذه الآيات . فما تأويلها إلا وقوعها على النحو الذى عرضت به ، وحينئذ لا فسحة ولا شفيع (١) .

نعم هكذا ينتهى الاستعراض العجيب . فنفيق منه ، كما نفيق من مشهد أخاذ ، ونعود منه إلى الدنيا التى نعرف وقد قطعنا رحلة طويلة . رحلة الحياة الدنيا كلها ، ورحلة الحشر والحساب والجزاء قبل أوانها ؛ ومن قبل كنا مع آدم وإبليس فى جولتهما الأولى .

وهكذا يرتاد القرآن الكريم بقلوب البشر هذه الآماد والأكوان والأزمان ؛ ليريها ما كان وما هو كائن وما سيكون ، لعلها تتذكر ، ولعلها تسمع النذر : « كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » .

« إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ؛ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ

---

(١) عن كتاب مشاهد القيامة فى القرآن بتصرف يسير . صفحات : ٨٦ ـ ٩٢ .

بِأَمْرِهِ . أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ، فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ، كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ » .

بعد تلك الرحلة الواسعة الآماد ، من المنشأ إلى المعاد ، يأخذ السياق بأيدى البشر إلى رحلة أخرى فى ضمير الكون ، وفى صفحته المعروضة للأنظار . فيعرض قصة خلق السماوات والأرض ، بعد قصة خلق الإنسان ، ويوجه الأبصار والبصائر إلى مكنونات هذا الكون وأسراره ، وإلى مظاهره وظلاله . إلى الليل الذى يطلب النهار فى ذلك الفلك الدوار . وإلى الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله . وإلى الرياح الدائرة فى الجواء ، تقل السحاب ، إلى البلد الميت ، فإذا هو حى بالماء ، وإذا الموات يؤتى من كل الثمرات .

هذه السبحات فى ملكوت الله ، يرتادها السياق ليرد البشر إلى ربهم الذى خلق هذا الوجود ، يدعونه تضرعا وخفية فى إنابة وخشوع ، ويتحرجون من إفساد الأرض التى أصلحها الله للعباد ، ويشكرون الله الذى فصل هذه الآيات . فلنمض فى هذه الرحلة الكونية الفسيحة . .

* * *

« إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين » .

إن عقيدة التوحيد التجريدية ، لا تدع ظلا لأى تصور بشرى عن ذات الله سبحانه . ولا مجال للإدراك البشرى ليكون صورة ما عن ذات الله . ومن ثم لا يكون هناك مجال كذلك لأى وصف مستمد من الإدراك البشرى لا للظرفية التى خلق الله فيها السماوات والأرض ، ولا للعرش ، ولا للاستواء .

فلفظ ستة أيام ومدلوله هنا لا سبيل لإدراكه بتقدير البشر . وهذه الظرفية الزمنية — على ظاهرها — يجوز أن تسند إلى أعمال البشر ، ولكنها لا تسند لأعمال الله ، التى لا ظرفية لها من زمان أو مكان . فالزمان والمكان ظلان للتصور البشرى المحدود . إلا أن يكون لهذه الظرفية بالقياس إلى الله صورة ومدلول غير الصورة البشرية ومدلولها .

وعندئذ نستبعد كل ما ثار من جدل حول هذا التعبير ؛ ونستبعد قبل ذلك كل ما رسم من صور لهذه الأيام ، وما تم فيها من خلق . ونقف عند حدود اللفظ لا نتصور لمدلوله صورة معينة ، ولا هيئة خاصة ، كما نقف عند ذات الله سبحانه لا نتصور لها صورة من صنع خيال الإنسان [1] .

كذلك نقف هذه الوقفة عند العرش والاستواء ؛ مستبعدين كل ما ثار من الجدل بين المعتزلة وأهل السنة والمشبهة ؛ وإن كنا نرجح — استنادا إلى دراسة مستوفية لطريقة القرآن فى

---

(١) قيل الستة أيام هى الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله ، وفيه خلق آدم عليه السلام ، واختلفوا فى هذه الأيام ، هل كل يوم منها كهذه الأيام . كما هو المتبادر إلى الأذهان ، أو كل يوم كألف سنة . وأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لأنه اليوم السابع ومنه سمى السبت وهو القطع . وروى حديث من هذا القبيل ، ولكن البخارى وغيره من الحفاظ لم يقبلوه ، وجعلوه من رواية أبى هريرة عن كعب الأحبار وليس مرفوعا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .. ونحن نؤثر الوقوف عند اللفظ دون تفسيره ولا تأويله كما بينا فى الأصل .

تصوير المعانى ، وتجسيمها ـ أن هذا التعبير وأمثاله جار على طريقة التخييل الحسى والتجسيم ، التى ترسم المعانى المجردة فى هيئة حسية مجسمة (١) .

* * *

ونخلص من هذا إلى تلك الرحلة الشاسعة فى أقطار الكون المنظور ، وفى أسرار الخلق المكنونة ، التى يرتادها بنا السياق ..

« إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام » .. فهذا هو الحقيق بالربوبية ، وهو خالق هذا الكون المشهود فى ضخامته وفخامته . وإن كانت ألفتنا له قد أنستنا روعته ، ولو اطلعنا عليه أول مرة لأخذنا من عظمتــه الدوار ؛ ونحن كالذر التائه فى ذلك التيه الذى تضل فيه الأبصار والأفكار !

« ثم استوى على العرش » .. مستعليا على هذا الكون الهائل كله ؛ يدبره بأمره ، ويصرفه وفق الناموس الذى اختاره .. « يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا » .. ويدور الخيال مع هذه الدورة الدائبة التى لا نهاية لها ولا ابتداء . دورة الليل يطلب النهار ، ويجرى فى إثره مع الفلك الدوار . وإن الوجدان البشرى ليرتعش ، وهو يلاحق هذه الدورة ، ويعدو مع الليل والنهار ، وقد كان يمر بهما أو يمران به دون ما لفتة ولا انتباه ، فإذا هما فى هــذا التعبير حيان من الأحياء ، لا ظــلان للنجوم والكواكب . يعاطفان الوجــدان البشرى ويعاطفهما ، ويحيا معهما ويحيا بهما ، ويحس بهما إحساسه بسائر الأحياء .

---

(١) جاء فى كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » فى فصل : التخييــل الحسى والتجسيم ص ٧٢ من الطبعة الثالثة : « بهذه الطريقة المفضــلة فى التعبير عن المعانى المجردة سار التعبير القرآنى فى أخص شأن يوجب فيه التجريد المطلق والتنزيه الكامل ، فقال « يد الله فوق أيديهم » . « وكان عرشه على الماء » « ثم استوى على العرش » . « ثم استوى إلى السماء وهى دخان » . « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه » . « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . « والله يقبض ويبسط » . « وجاء ربك والملك صفا صفا » . « وقالت اليهود : يد الله مغلولة . غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان » . « إنى متوفيك ورافعك إلى » ... الخ ... وثار ما ثار من الجدل حينما أصبح الجدل صناعة ، والكلام زينة ، وإن هى إلا جارية على نسق متبع فى التعبير ، يرمى إلى توضيح المعانى المجردة وتثبيتها ، ويجرى على سنن مطرد ، لا تخلف فيه ولا عوج . سنن التخييل الحسى والتجسيم ، فى كل عمل من أعمال التصوير ..

« والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره » . . وفق الناموس الكونى الذى أقامها على أساسه ، وصرفها على وفقه.. ثم هى فى هذا التعبير حية ذات نفس وذات حس ، وذات إرادة تسخر لمشيئة الله . وهكذا يخلع التعبير القرآنى على كل مخلوق فى هذا الكون حياة .

« ألا له الخلق والأمر » . . فهو وحده الخالق ، وهو وحده الآمر . خلق الكون ويصرفه بأمره وتدبيره وسنته التى أراد . « تبارك الله رب العالمين » .. لاشريك له فى الربوبية وهو الخالق الآمر المدبر للوجود .

* * *

وعند ما يصل السياق إلى هذا المقطع ، وقد ارتعش الوجدان البشرى لمشاهد الكون الحية ، التى كان يمر عليها وهو غافل . . عندئذ يوجه البشر إلى ربهم ليدعوه فى إنابة وخشوع :

« ادعوا ربكم تضرعا وخفية . إنه لايحب المعتدين . ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ؛ وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين » . .

إنه التوجيه فى أنسب الظروف ، إلى الدعاء والإنابة « تضرعا وخفية » لا صياحا وتصدية . فالتضرع أنسب وأليق فى حضرة الخالق العظيم ، والخفية أفضل ، والأمر بين العبد وربه بلا وسيط . ولقد روى مسلم عن أبى موسى قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر — وفى رواية غزاة — فجعل الناس يجهرون بالتكبير — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس أربعوا (أى ارفقوا) على أنفسكم . إنكم لستم تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا ، وهو معكم . . » .

وبمناسبة التضرع فى الدعاء ، وهيئة الخشوع والانكسار فيه ، جاء ذكر كراهة الله للاعتداء ، ونهيهم عن الفساد فى الأرض بعد الإصلاح : « إنه لا يحب المعتدين ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها » ذلك أن صورة الاعتداء عكس صورة الخشوع ، وصورة الدعاء إلى الله فى ضراعة عكس صورة الإفساد فى الأرض بغلظة ؛ والنفس التى تضرع وتخشع ، لا تعتدى بعد ذلك ولا تفسد ؛ فبين الانفعالين اتصال داخلى ؛ والسياق القرآنى يتبع خلجات

النفوس ، وانفعالات القلوب . . « وادعوه خوفا وطمعا » . . خوفا من العذاب وطمعا فى الثواب ، أو خوفا من الغضب وطمعا فى الرضوان ، أو خوفا من المعصية وطمعا فى الطاعة . . على حسب مراتب النفوس ودرجاتها وأحوالها المختلفات . . « إن رحمة الله قريب من المحسنين » . . الذين يحسنون التوجه إلى الله ويحسنون العمل فى الحياة . واستجابة الدعاء تكون أقرب فى ساعات الطاعة والإحسان .

* * *

ومرة أخرى يفتح السياق للوجدان البشرى صفحة من صفحات الكون المعروضة للأبصار والبصائر . ولكن الناس يمرون بها غافلين . صفحة يفتحها على ذكر رحمة الله فى الآية السابقة ، نموذجا للرحمة فى صورة الماء الهاطل والزرع النامى والحياة النابضة بعد الموت والخمود :

« وهو الذى يرسل الرياح ، بشرا بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات . كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » . .

وفى كل لحظة تهب ريح ، وفى كل وقت تحمل الريح سحابا ، وفى كل فترة ينزل السحاب ماء . ولكن ربط هذا كله بإرادة الله ، والانتهاء به إلى إحياء الموات وإخراج النبات هو الجديد الذى يعرضه القرآن ، ويوجه إليه الوجدان . وهو الجدير بالتأمل والتدبر والتأثر . فهو الذى يرسل الريح — بما أنه هو خالق الكون على ذلك الناموس الذى تهب بمقتضاه الرياح — « بشرا بين يدى رحمته » تبشر برحمته ، وتتقدمها ، وتعلن مقدمها للناس . « حتى إذا أقلت سحابا ثقالا » وحملته مثقلا بالماء ، « سقناه لبلد ميت » صحراء أو جدباء ، « فأنزلنا به الماء » فدبت الحياة فى الموات ، وسرى الخصب فى الجدب « فأخرجنا به من كل الثمرات » . .

وإلى هنا ينتهى المنظر المشهود . ومنه يتدرج السياق إلى قضية أخرى أكبر وأشمل : « كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » . بمثل هذا اليسر الطبيعى الذى شهدتم منه نموذجا فى الماء الهاطل ، والحياة الخارجة من الموات . « كذلك نخرج الموتى » والأمر لا يحتاج إلا إلى التذكر والاعتبار بذلك الواقع المشهود .

إن معجزة الحياة هى هى فى طبيعتها . فمتى تحققت مرة فهى ممكنة التحقيق . والقدرة التى تبث الحياة فى صورة قادرة على أن تبثها فى كل صورة . والأمر هين على المبدىء المعيد . .

***

ويختم السياق هذه الرحلة فى أقطار الكون ، ومكنونات الوجود ، بمثل يضربه للطيب والخبيث من القلوب . ينتزعه من جو المشهد المعروض ، مراعاة للتناسق فى المرائى والمشاهد ، وفى الطبائع والحقائق :

« والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذى خبث لايخرج إلا نكدا . كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » .

والقلب الطيب يشبه فى القرآن وفى الحديث بالأرض الطيبة ، وبالتربة الطيبة ؛ والقلب الخبيث يشبه بالأرض الخبيثة والتربة الخبيثة . فكلاهما : القلب والتربة ، منبت زرع ، ومأتى ثمر . القلب ينبت مشاعر واتجاهات وانفعالات واستجابات ، وأعمالا وآثارا وكلها غذاء للنفس طيب أو خبيث . والأرض تنبت زرعا وثمرا مختلفا أكله غذاء للجسم من طيب أو خبيث .

والقلب الطيب كالبلد الطيب « يخرج نباته بإذن ربه » سهلا هينا لينا فى رعاية الله وتوجيهه ، والذى خبث ، أى تحول من الطيبة إلى الخبث « لا يخرج إلا نكدا » فى عسر ومشقة ، وفى إيذاء وجفوة .

والهدى والآيات والموعظة والنصيحة تنزل على القلب كما ينزل الماء على التربة . فإن كان صالحا للتلقى تفتح واستقبل وزكا وفاض منه الخير ، وإن كان فاسدا استغلق وقسا ، وفاض منه الشر . . « كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » والشكر ينبع من القلب الطيب ، ويدل على الاستقبال الطيب ، والانفعال الطيب . ولهؤلاء الذين يحسنون الاستقبال والانفعال يكون تصريف الآيات وعرضها فى صور شتى وأوضاع متجددة ، استنقاذا لها من ابتذال الألفة والتكرار .

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ : إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالَ : يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ، وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ، وَأَنْصَحُ لَكُمْ ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ، لِيُنْذِرَكُمْ ، وَلِتَتَّقُوا ، وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ؟ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ .

« وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ، قَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ، وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ : يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ، وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ، وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ؟ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ، وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قَالُوا : أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ؟ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ : قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ، أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ؟ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ .

« وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ، قَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ

ٱللهِ ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ، فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَٱذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ، وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ، تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً ، وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتاً ، فَٱذْكُرُوا آلَاءَ ٱللهِ ، وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا ، لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ : أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قَالُوا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا : إِنَّا بِٱلَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا ٱلنَّاقَةَ ، وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ، وَقَالُوا : يَا صَالِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ، إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ : يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، وَلَٰكِنْ لَا تُحِبُّونَ ٱلنَّاصِحِينَ .

« وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ ؟ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ، شَهْوَةً ، مِنْ دُونِ ٱلنِّسَاءِ ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ! * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ — إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ — * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ .

« وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ، قَالَ : يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ، وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ، وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَٱذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ، وَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِٱلَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَٱصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ ٱللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا

مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ، أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا . قَالَ : أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ؟ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا - إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً - عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ؛ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ : يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ؟ » .

والآن فالجولة الثالثة أو الرابعة ، مع الأمم الخالية ، والقرى المهلكة ، التي جاء ذكرها في أول السورة مباشرة بعد النذير : « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون » .

الآن إلى مصارع قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب . . أولئك الذين عصوا ، ولم يستمعوا للنذر ، فحق عليهم الهلاك والدمار ، تصديقا للنذر .

فهؤلاء هم بنو آدم ، الذين أخرج الشيطان أبويهم من الجنة ، وقيل لهم : لاتتبعوا خطوات الشيطان إن الشيطان لكم عدو مبين ، وحذروا من الشر الذي يضمره لهم هذا العدو ، وأنذروا على أيدي الرسل . ثم هم بعد ذلك كله اتبعوا الشيطان وأولياءه ، فلاقوا شر مصير .

هؤلاء هم ، وفي قصصهم عبرة ، وهذه الجولة معهم ، وفي مصارعهم ، تجيء بعد الجولة الأولى في ساحة الملأ الأعلى مع آدم وإبليس ؛ والجولة الثانية في ساحة الحشر مع أصحاب الجنة وأصحاب النار ؛ والجولة الثالثة في أقطار الكون المنظور وفي ضميره المستسر المكنون . .

هذه الجولة فى فجاج الأرض مع تاريخ البشر ، ومع مصارع المكذبين ، لمسة مباشرة للوجدان البشرى ، فالتأثر بالأحياء أعمق فى نفوس الأحياء ، لعل ضمائرهم تنتفض ، ولعل وجدانهم يرتعش ، ولعلهم يتوبون إلى الله على صوت النذير .

والقصص فى القرآن لا يعنى بأن يتتبع الخط التاريخى ؛ لأنه لم يقصد به إلى التاريخ ، كما لم يقصد به إلى ذات القصص ، إنما هو وسيلة تربية وتهذيب ، وأداة إيضاح وتمثيل . . ولكنه أحيانا يتبع الخط التاريخى كما هو الشأن هنا ، لأداء غرض معين فى سياق معين .

وقد بدأ فى هذه السورة بقصة آدم . ثم قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب . ثم قصة موسى التى ستجىء . متمشيا مع خط التاريخ المعروف . وأشار إلى أن هذه الأمم خلف بعضها بعضا على مدى التاريخ . . ذلك أن هنا هدفا خاصا لهذا التسلسل ، أو أهدافا شتى ، نلمح منها :

أولا : تصوير وحدة العقيدة فى الرسالات كلها . فكل رسول يأتى قومه ، ليقولها كلمة واحدة لا تتبدل ، حتى فى ألفاظها ، وتوحيد حكاية هذه الألفاظ مع اختلاف اللغات التى خاطب بها الرسل أقوامهم يبدو مقصودا لتحقيق معنى الوحدة بكل جزئياتها . فالمعنى واحد ، عبر عنه بلغات متعددة ، يحكى القرآن الكريم فحواها بعبارة عربية واحدة ، لأن هذه العبارة دقيقة فى التعبير عن هذه الفحوى من جهة ، ولأن عرضها فى السياق بذاتها يصور وحدة العقيدة تصويرا أدق وأوفى . . هذه العبارة الواحدة التى يقولها كل رسول : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » . . يقولها ويمضى ، ويتبعه أخوه بعد فترة ، فيقول الكلمة ذاتها ، ويتبعه أخوه . . على ذات النهج الواحد الذى لا يتبدل ، لأن العقيدة ذاتها لا تتبدل ، وصاحبها واحد سبحانه لا يتبدل ، والرسل أمة واحدة ذات فطرة واحدة وطبيعة واحدة على مدار التاريخ [١] .

ثانيا : تصوير وحدة طبيعة الإيمان ووحدة طبيعة الكفر فى نفوس البشر على مدار التاريخ — فالذين آمنوا بكل رسول ، لم يستكبروا أن يطيعوا ، ولم يعجبوا أن يختار الله منهم رسولا .

(١) الجزء الثالث من الظلال تفسير : « تلك الرسل . . » .

والذين كفروا أخذتهم العزة بالإثم أن يستجيبوا لرجل منهم ، ولم يستشعروا مافى هذا الاختيار من تكريم للجنس البشرى كله ، ومن صلة بين الله وهذا الجنس تتحقق مباشرة فى صورة رسالة . لذلك كان كل رسول يقول لقومه : « أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ؟ » ويحكى القرآن هذا المعنى بعبارة عربية واحدة على الطريقة التى أسلفنا .

ثالثا : تصوير الغفلة عن النذر ، ونسيان الموعظة والعبرة ، وإغفال الشكر على نعمة الاستخلاف فى الأرض ؛ متحققة فى جيل بعد جيل ، وفى أمة بعد أمة ؛ لا تتذكر الأمة الخالفة ما حل بالأمة السالفة ؛ ولا تشكر على استخلاف الله لها فى الأرض بعد مصارع الغابرين .. « قليلا ما تشكرون » ..

رابعا : تصوير مصارع المكذبين ، تجرى على سنة لا تتبدل : نسيان لآيات الله وانحراف عن طريقه . إنذار من الله للغافلين على أيدى الرسل. استكبار وتكذيب بالنذر . اغترار بالرخاء واستهزاء بالإنذار واستعجال للعذاب.. ثم المصرع الذى يأتى وفق السنة عن مدار التاريخ ..[1]

وكذلك مضى هذا القصص ، على التسلسل التاريخى ، يحقق هذه الأغراض جميعا ، حسبما يرى الناظر فى قصص القرآن هنا مع خط سير التاريخ . حتى ينتهى إلى التعقيب الأخير : «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ... » إلى نهاية التعقيب [2] ، فإذا هو متناسق مع هذا القصص ، متناسق مع الجولات السابقة فى السياق ، متناسق مع موضوع السورة الرئيسى ، وجوها العام .

* * *

« لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، فقال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، إنى أخاف

---

(١) يراجع بتوسع فصل : القصة فى القرآن ، فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

(٢) كان هذا «الجزء» من القرآن ينتهى عند قوله : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب من أرضنا » ولكننا تجاوزناه فى هذا الدرس حتى تنتهى قصة شعيب . أما التعقيب على القصص فسيجىء فى الجزء التاسع إن شاء الله .

عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه : إنا لنراك فى ضلال مبين . قال : ياقوم ليس بى ضلالة ، ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى ، وأنصح لكم ، وأعلم من الله مالا تعلمون . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون ؟ فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوما عمين » ..

تعرض القصة هنا مختصرة ، ليست فيها التفصيلات التى ترد فى مواضع أخرى فى القرآن ، فى سياق يتطلب تلك التفصيلات . إن الهدف هنا هو تصوير تلك المعانى التى تحدثنا عنها آنفا : طبيعة العقيدة . طريقة التبليغ . طبيعة استقبال القوم لها. تحقق النذير . لذلك تذكر من القصة حسب تلك الحلقات المحققة لتلك المعانى ، على منهج القصص القرآنى .

« لقد أرسلنا نوحا إلى قومه » .. على سنة الله فى إرسال كل رسول من قومه بلسان قومه ، تأليفا لقلوب الذين لم تفسد فطرتهم ، وتيسيرا على البشر فى التفاهم والتعارف . وإن كان الذين انحرفت فطرتهم يعجبون من هذه السنة ، ولا يستجيبون . وإن هى إلا حجة ، وما كانوا ليستجيبوا إلى الهدى مهما جاءهم من أى طريق .

« لقد أرسلنا نوحا إلى قومه » فقال لهم تلك القولة الواحدة التى يقولها كل رسول : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » . فهى الكلمة التى لا تتبدل ؛ وهى عماد هذه الحياة الذى لا تقوم على سواه ؛ وهى ضمان وحدة المتجه ووحدة الهدف ووحدة الارتباط فى ذات الله ، لا فى أهواء وأوهام لا مرجع لها ولا أساس . وهى الكفيل بتحرر البشر من العبودية لأية سلطة فى الارض ، وبالاستعلاء على المال والمركز والجاه .. قال لهم تلك القولة الواحدة ، وأنذرهم عاقبة التكذيب مشفقا عليهم من تلك العاقبة الوخيمة : « إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » . .

فكيف كان استقبال المنحرفين الضالين لهذا القول المستقيم ؟ « قال الملأ من قومه : إنا لنراك فى ضلال مبين » !

وهكذا يبلغ الضال من الضلال ، أن يحسب من يدعوه إلى الهدى هو الضال ! فلا يحاول حتى أن يتبين ما قد يكون فى قوله من الصواب !

وينفي نوح عن نفسه الضلال ، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها ؛ فهو لم يبتدعها من أوهامه وأهوائه ، إنما هو مجرد رسول من عند الله ، يحمل لهم الرسالة ، وينصح لهم ، ويعطيهم من العلم الذي آتاه الله وهم لا يعلمونه : « قال : ياقوم ليس بي ضلالة ، ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي ، وأنصح لكم ، وأعلم من الله مالا تعلمون » ..

ونلمح هنا فجوة في السياق . فكأنما عجبوا أن يختار الله رسولا منهم ،واحدا من آحادهم ، يحمله رسالة إلى قومه ،ويعلمه علما خاصا ليس لغيره.هذه الفجوة في السياق يدل عليها مابعدها ؛ لذلك تحذف إيجازا ، للإسراع بالوصول إلى هدف القصة في هذا الموضع من قرب العاقبة وتحقق الإنذار [1] : « أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ؟ » .. وما من عجب في هذا الاختيار ، إلا أن تنحرف الفطرة وتفسد ، ولا تحس حقيقة الصلة بين الله والإنسان ، وقد نفخ الله فيه من روحه فأودع فيه الاستعداد للاتصال به ، والتلقي عنه ، ورفعه بذلك عن التكوين المادي الصرف ، ودس فيه ذلك السر اللطيف الذي به معنى الإنسان ، وهو مناط التكريم العلوي لهذا المخلوق العجيب التكوين . ويكشف لهم نوح عن هدف الرسالة : الإنذار ، لتحريك القلب بمشاعر التقوى ، وربطه بالله في يقظة وإشفاق ؛ ومن ثم شعور طيب ، وعمل طيب ، تتنزل بهما رحمة الله على العباد .

ولكن الفطرة حين تفسد ، لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر : « فكذبوه » .. ويسرع السياق هنا بالعاقبة ، لأن الإسراع بها يؤكد قوة الإنذار : « فأنجيناه والذين معه في الفلك . وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا . إنهم كانوا قوما عمين » .. ولقد رأينا عماهم عن البيان والنصح والإنذار . فبعماهم هذا كذبوا ، وبعماهم هذا استحقوا الهلاك ..

* * *

وتمضي عجلة الزمن ، ويمضي معها السياق ، فإذا نحن أمام هود وعاد :

« وإلى عاد أخاهم هودا ، قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك في سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين . قال : ياقوم

---

(١) يراجع بتوسع فصل : التناسق الفني في كتاب التصوير الفني في القرآن .

ليس بى سفاهة ، ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى ، وأنا لكم ناصح أمين . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بصطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال : قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا إنى معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين » ..

إنها نفس الرسالة ، ونفس الطريق ، ونفس الحوار ، ونفس العاقبة .. إنها السنة الماضية ، والناموس النافذ ، والقانون الواحد .

« وإلى عاد أخاهم هودا » .. ولا يحدد السياق موطن عاد من الأرض ، ولا يحدد كذلك موقعهم من التاريخ ، إلا أنهم كانوا بعد قوم نوح . لأن القرآن ليس كتاب جغرافية ولا تاريخ ، إنما هو كتاب عقيدة ونظام ؛ فالعبرة الأخيرة من القصة هى التى تعنيه ، فى بناء العقيدة والنظام .. وهو يذكر أخوة هود لقوم عاد ، فهو منهم ، وهو قريب إليهم بأخوته الإنسانية ، وهى ملحوظة فى إرسال الرسل من الناس إلى الناس .

« قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .. القولة التى قالها نوح من قبله ، والتى كذب بها قومه ، فأصابهم ما أصابهم ، واستخلف الله عادا من بعدهم ، فلم يتذكروا ولم يتدبروا ، وساروا فى ذات الطريق . لذلك يضيف هود إلى الدعوة ، استنكارا لعدم تقواهم ، وقلة تخوفهم من ذلك المصير المرهوب : « أفلا تتقون ؟ »

وكأنما كبر على القوم هذا الاستنكار ، ورأوا فيه سفاهة وتجاوزا للحد وسوء تقدير ، فانطلقوا يتهمون نبيهم بالسفاهة والكذب جميعا : « قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك فى سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين » .. هكذا جزافا بلا ترو ولا تدبر ولا دليل ..

« قال : ياقوم ليس بى سفاهة ، ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى » فقد نفى عن نفسه السفاهة كما نفى نوح عن نفسه الضلالة ، وقد كشف لهم — كما كشف أخوه من قبل — عن مصدر رسالته ، وهدفها ؛ وبما أنه أخوهم فقد أفصح لهم عن مقتضى هذه الأخوة : « وأنا لكم ناصح أمين » فليس بالكاذب ولا الخادع ولا المريب .

ولابد أن يكون القوم قد عجبوا كما عجب قوم نوح ، من هذا الاختيار ومن تلك الرسالة، فإذا هود يكرر ما قاله نوح من قبل ، كأنما كلاهما روح واحدة فى شخصين ، أفليسا من أمة واحدة . أمة النبيين ؟ « أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ » ثم يزيد ماعليه واقعهم . واقع استخلافهم فى الأرض من بعد قوم نوح ، وإعطائهم قوة فى الأجسام وضخامة بحكم نشأتهم الجبلية ، وقد كانوا يسكنون جبال الأحقاف[1] : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء فى الأرض من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بصطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » . . ولقد كان من حق هذا الاستخلاف ، وهذه القوة والبصطة فى الخلقة ، أن يستوجبا الشكر على النعمة ، والحذر من البطر ، ومصير سلفهم أمامهم مشهود ، وهم لم يأخذوا على الله عهدا ، أن تتوقف سنته التى لا تتبدل ، والتى تجرى وفق ناموسها المرسوم . وذكر نعم الله يقود إلى شكرها ، ومن شكر أفلح ونجا وفاز .

ولكن الفطرة المنحرفة لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر . وهكذا أخذتهم العزة بالإثم، واختصروا الجدل ، واستعجلوا العذاب ، استعجال من يستثقل النصح ، ويهزأ بالإنذار : « قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » . . فكأنما كان يدعوهم إلى أمر منكر لا يطيقون الاستماع إليه . ولا يصبرون على الجدل فيه . أليس يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك ما كان يعبد آباؤهم ؟ ! وفى هذه القولة يتجلى الاستعباد الروحى والعقلى الذى يسلب بعض الناس حرية التدبر وحرية النظر وحرية التفكير ، ويدعهم عبيدا للعادة وللتقليد ، مقيدين بهما ، يغلقون على أنفسهم كل منافذ المعرفة والعلم الجديد . وهكذا استعجل القوم العذاب فرارا من مجرد الجدل فى الباطل الذى هم له عبيد .

ومن ثم كان الجواب حاسما وسريعا قبل أن يرد على هذا الباطل السخيف : « قال : قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب » فأبلغهم العاقبة التى تقررت لهم ولا محيد عنها ، وقرر لهم وقوع العذاب والغضب عليهم من ربهم كأمر حتمى لا رجعة فيه . ثم أخذ بعدها يدحض الباطل الذى أثاروه : « أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من

(١) على حدود اليمن ما بين اليمامة وحضرموت .

سلطان ؟ » فقد حول آلهتهم إلى مجرد أسماء كأن ليس لها مسميات ، ولا تبلغ أن تكون شيئا وراء الاسم الذى يطلق عليها ! وهو إنكار أعمق ، لأنه إنكار لأصل الوجود . فهل فى هذه الأسماء العارية من الحقيقة والمدلول يجادل المجادلون ؟ إن الله لم ينزل بها سلطانا ، ولم يضمنها قوة يثبت بها وجودها ، وإذا سلب الله قوة الوجود من شيء فقد انعدم وجوده . وهذا يتمشى مع وصفها بأنها مجرد أسماء ، مبالغة فى إنكار حقيقتها الوجودية . ثم يعقب بالتهديد بالعاقبة المقررة المحتومة : « فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » .. وإنها لقولة الواثق من المصير . .

ولا يطول الانتظار فى السياق : « فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين » . . فهو المحق الكامل ، الذى لا يتخلف منه أحد ، وهو ما عبر عنه بقطع الدابر . والتصريح بأنهم الذين كذبوا بدل وقطعنا دابرهم ، لبيان سبب الهلاك ، والتوكيد بأنهم ما كانوا مؤمنين ، لتوكيد هذا المعنى ، وتقرير كفرهم الأصيل .

وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين ، وتحقق النذير مرة أخرى فى دورة من دورات التاريخ . .

***

« وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض ، تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ، لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين » . .

وهذه صفحة جديدة من صحائف الإنذار والتكذيب ، ومصرع جديد من مصارع المكذبين .

« وإلى ثمود أخاهم صالحا » . . على ذات النسق . نسق عاد وأخيهم هود . . « قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ذات الكلمة الواحدة الخالدة ، التي بدأ الخلق بها وإليها يعود . وذات المنهج الواحد في الاعتقاد والاتجاه والعمل والسلوك . .

ويزيد هنا تلك المعجزة التي صاحبت دعوة صالح ، حين طلبها قومه للتصديق : « قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية » .. والسياق هنا لأنه معجل إلى إبراز عواقب التكذيب ، يختصر ويوجز ، فلا يذكر طلبهم الآية ؛ بل يعلن وجودها عقب الدعوة ؛ وكذلك لا يذكر تفصيلا عن الناقة ، أكثر من أنها بينة من ربهم وأنها آية من الله ، ونحن مع السياق لا نتلبث ولا نتمسك لإبداء شرح أو رواية ، لنعيش في ظلال النصوص القرآنية حسب ورودها في مواضعها المختلفة ، ونمضى مع قول صالح: « فذروها تأكل في أرض الله ».. بما أنها ناقة الله . « ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم » . . وهكذا سبق النذير ..

وبعد عرض الآية والإنذار بالعاقبة يأخذ صالح في النصح بالتدبر والتذكر والنظر في مصائر الماضين ، والشكر على النعم والآلاء : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الأرض ، تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا » . . ولا يحدد كذلك موطنهم من الأرض[1] ولا موقعهم على التحديد من التاريخ .. « فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين » .. ومن هذا التذكير القصير نلمح أثر النعمة والتمكين في الأرض لثمود، وندرك طبيعة الموقع الذى كانوا يعيشون فيه ، فهو سهل وجبل ، يتخذون في السهل القصور ، وينحتون في الجبال البيوت ؛ فهي حضارة عمرانية واضحة المعالم في هذا النص القصير . وصالح يذكرهم استخلاف الله لهم من بعد عاد ، وإن لم يكونوا في أرضهم ذاتها ، ولكن يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية في التاريخ لحضارة عاد ، وبذلك صاروا خلفاء ، وصاروا ممكنين في الأرض ، محكمين فيها ؛ وهو ينهاهم عن الانطلاق في الأرض بالفساد ، استطالة بالقوة والتمكين .

---

(١) كانوا يسكنون الحجر بين الحجاز والشام .

وهنا كذلك نلمح فجوة أخرى فى السياق على سبيل الإيجاز والاختصار . فقد آمنت طائفة من قوم صالح ، واستكبرت طائفة . والمستكبرون هم آخر من يؤمن ، والجماهير التى لاسلطان لها يكون منها أول المسلمين . ذلك أن الجماهير ليست لها مصالح شخصية تتأثر بالدعوات الجديدة ، فتصدها عن هذه الدعوات ، كما يكون الأمر مع المستغلين المحافظين على الأوضاع التى يفيدون منها ويستندون إليها ، فتقدير الضعفاء للدعوات الجديدة أسلم لأنه غير متأثر بشائبة المصلحة ؛ وهم كذلك أطوع ، فلا تأخذهم العزة بالإثم . وهكذا كان الضعفاء فى تاريخ الدعوات كلها طلائع المؤمنين ، الذين يتحولون إلى قوة تحطم عناد الأقوياء المتكبرين .

وهنا يتوجه المستكبرون من قوم صالح ، إلى المؤمنين من الضعفاء بالاستجواب : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ، لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ » وهو سؤال للتهديد والتخويف ، ولاستنكار إيمانهم به ، فهم يتعنتون فى السؤال، فلا يسألونهم : أتعتقدون أنه مرسل من ربه ؟ ليكلوا الأمر إلى قلوبهم ، إنما يسألونهم : أتعلمون ؟ فيكلفونهم علم غيب من الغيب ، ليناقشوهم فى طريقة العلم بغيب مكنون . فأما المؤمنون فهم يقررون حقيقة الموقف ، ويتحدثون عن اعتقادهم لا عن علمهم ، فالمسألة هنا مسألة عقيدة لا علم : « قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون » . فى اطمئنان وثقة وقوة ويقين .

ومن ثم يعلن المستكبرون عن موقفهم فى صراحة : « قالوا : إنا بالذى آمنتم به كافرون » على الرغم من البينة التى جاءتهم للتصديق. ويتبعون القول بالفعل ، فيعتدون على الناقة التى جاءتهم آية من عند الله ، وحذرهم صالح أن يمسوها بسوء ؛ ويتبجحون باستعجال العذاب الذى أنذرهم به إن كان صادقا فيما يقول : «فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين » .. ويختار السياق كلمة « عتوا » لابراز صفة التجبر والتبجح فى العصيان ، فيصف شعورهم المصاحب لهذا العصيان .

ولا يستأنى السياق فى إعلان الخاتمة ، ردا على هذا التبجح والعتو والاستكبار : « فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين » . . والرجفة والجثوم ، جزاء مقابل للعتو والتبجح ؛ فالرجفة تصاحب الفزع عادة ، والجثوم دلالة العجز عن الحركة . وما أجدر العاتى أن يرتجف ، وما أجدر المعتدى أن يعجز .. جزاء وفاقا فى المصير ، وفى التعبير عن هذا المصير ، بالتصوير .

ويدعهم السياق على هيئتهم « جاثمين » ليتحدث عن صالح الذى كذبوه وتحدوه ؛ فإذا هو يتخذ له وجهة غيرهم ، وينفض يديه منهم ، ويدعهم للمصير الذى جلبوه على أنفسهم بأيديهم ، وهو منهم ومما حل بهم برىء : « فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين » . .

وهكذا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين ، ويحق النذير على المستهزئين بالنذير . .

* * *

وتمضى عجلة التاريخ ، فيظلنا عهد إبراهيم . ولكن السياق لا يأتى هنا بقصة إبراهيم . لأنه فى معرض مصارع المكذبين . وقوم إبراهيم لم يهلكوا لأن إبراهيم لم يطلب من ربه هلاكهم ، بل اعتزلهم وما يدعون من دون الله . إنما تجىء قصة قوم لوط ، ابن أخى إبراهيم ومعاصره بما فيها من إنذار وتكذيب وإهلاك ، يتمشى مع ظل السياق :

« ولوطا إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين ! إنكم لتأتون الرجال ــ شهوة ــ من دون النساء . بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » . .

وتكشف لنا قصة قوم لوط عن لون خاص من انحراف الفطرة ، وعن قضية أخرى غير قضية التوحيد التى كانت مدار القصص السابق ؛ ولكنها فى الواقع ليست بعيدة عن قضية التوحيد . إن الاعتقاد فى الله الواحد اعتقاد فى سنته وفى نواميسه . وقد شاءت سنة الله أن يخلق البشر ذكرا وأنثى ، وأن يجعلهما شقين للنفس الواحدة ، تتكامل بهما ؛ وأن يتم الامتداد فى هذا الجنس عن طريق النسل ؛ وأن يكون النسل من التقاء ذكر وأنثى . ومن ثم ركبهما وفق هذه السنة صالحين للالتقاء ، صالحين للنسل عن طريق هذا الالتقاء ؛ مجهزين عضوياً وشعوريا لهذا الالتقاء . وجعل اللذة التى ينالانها عندئذ عميقة فى كيانهما كله ــ كل منهما بحسب وظيفته ودوره ــ لضمان أن يلتقيا فيحققا مشيئة الله فى امتداد الحياة ؛ ثم لتكون هذه اللذة العميقة فى مقابل الآلام والمتاعب التى يلقيانها من بعد فى الذرية ــ كل منهما حسب نصيبه .

هذه هي سنة الله ، التي يتصل إدراكها والعمل على وفقها بالاعتقاد في الله وحكمته ولطف تدبيره . ومن ثم يكون الانحراف عنها متصلا بالانحراف عن العقيدة في الله ؛ ناشئا عنه ؛ أو مؤديا إليه . والمعاصي تتفاعل فيما بينها كما تتفاعل الطاعات .

ويبدو انحراف الفطرة واضحا في قصة قوم لوط . حتى أن لوطا ليجبههم بأنهم بدع دون خلق الله فيها ، وأنهم في هذا الانحراف الشنيع غير مسبوقين : « ولوطا إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين ؟ إنكم لتأتون الرجال — شهوة — من دون النساء ، بل أنتم قوم مسرفون » . .

والإسراف الذي يدمغهم به لوط ، هو الإسراف في الطاقة الطبيعية التي وهبهم الله إياها ، وفق سنته ، لأداء دور معين في امتداد البشرية ونمو الحياة . فإذا هم يريقون هذه الطاقة ، ويبعثرونها ، وينفقونها إسرافا وتبذيرا في غير موضعها ، حيث لا تثمر ، ولا تحقق الغرض الإلهي منها ؛ فوق أنها شهوة شاذة ، لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية ؛ فإذا وجدت لذة في نقيض تلك السنة ، فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطري ، قبل أن يكون فسادا أخلاقيا .

إن التكوين العضوي للأنثى هو الذي يحقق لذة الفطرة الصادقة للذكر والأنثى ، في هذا الالتقاء ، الذي لايقصد به مجرد اللذة ، إنما هذه اللذة تصاحبه رحمة من الله ونعمة ؛ إذ يجعل القيام بتحقيق سنته ومشيئته في امتداد الحياة مصحوبا بلذة تعادل مشقة التكليف . فأما التكوين العضوي للذكر ، فلا يمكن أن يحقق لذة للفطرة السليمة ؛ بل إن شعور الاستقذار ليسبق فيمنع مجرد الاتجاه عند الفطرة الصحيحة .

وإن الانحراف العجيب ليتجلى مرة أخرى في جواب قوم لوط : « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم » لماذا ؟ « إنهم أناس يتطهرون » ! يا عجبا ! أو من يتطهر يخرج من القرية إخراجا ؛ ليبقى فيها الملوثون الدنسون ؟ إنه منطق يتفق مع الانحراف الأول ، وإنهم لمنطقيون مع أنفسهم بكل تأكيد !!!

وتعرض الخاتمة سريعا : «فأنجيناه وأهله — إلا امرأته كانت من الغابرين — وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » . . إنها النجاة لمن تهددهم العصاة . إلا امرأته

فكانت من المهلكين، لأنها كانت منهم فطرة وطريقا . وقد أمطروا مطرا مهلكا مع ما صاحبه من عواصف . . ترى كان هذا المطر المغرق والماء وسيلة الطهارة فى مقابل ذلك الدنس المغرق الذى كانوا فيه غارقين ؟ !

على أية حال لقد طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين . .

* * *

ونأتى للصفحة الأخيرة من صحائف هذه الأمم المكذبة فى تلك الحقبة من التاريخ ،صفحة مدين وأخيهم شعيب :

« وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولاتقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودن فى ملتنا . قال : أو لو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها - إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علما - على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه : لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذاً لخاسرون . فأخذتهم الرجفة . فأصبحوا فى دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ؛ الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين . فتولى عنهم وقال : ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ؛ ونصحت لكم ؛ فكيف آسى على قوم كافرين ؟ » .

إننا نجد شيئا من الإطالة فى هذه القصة ، بالقياس إلى نظائرها فى هذا الموضع . ذلك أنها تتضمن غير قضية العقيدة شيئا عن المعاملات ، ذلك نظرا إلى نمو المجتمع وتعقده فى عهد شعيب ؛

وهو قريب من موسى . وإن كانت القصة سائرة على المنهج الإجمالى الملحوظ فى هـــذا السياق .

« وإلى مدين أخاهم شعيبا ؛ قال : ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » . . فهى الدعوة التى لا تغيير فيها ولا تبديل . . ثم تبدأ الزيادات الجديدة فى دعوة النبى الجديد .

« قد جاءتكم بينة من ربكم » . . ولا يذكر السياق هـذه البينة ؛ كما ذكرها فى قصة صالح ؛ ولا نعرف لها تحديدا من مواضع القصة الأخرى فى القرآن . وربما كانت هى مصارع الأمم الخالية ؛ ويرتب على هذه البينة الأمر بتوفية الكيل والميزان والنهى عن الفساد فى الأرض والكف عن قطع الطريق على الناس ؛ وعن فتنة المؤمنين عن دينهم الذى ارتضوه .

وندرك من هذا أن قوم شعيب كانوا سيئى المعاملة فى البيع والشراء ، كما كانوا مفسدين فى الأرض ، قطاعا للطرق ، ظلمــة يفتنون الناس عن دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله المستقيم، ويكرهون الاستقامة ويحبون الاعوجاج والانحراف .

وشعيب يستجيش فى نفوسهم مشاعر الإيمان : « ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين » . ويذكرهم بنعمة الله عليهم إذ بارك فى عددهم وضاعفه : « واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم » . ويبصرهم بعاقبة الإفساد ممثلة فى مصارع الماضين : « وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين » .

ويريد منهم أن يأخذوا أنفسهم بشىء من العدل وسعة الصدر ، فإذا كان فريق منهم قد آمن به وفريق لم يؤمن ، فلا أقــل من أن يدعوا الحرية للجميع وأن لا يكرهوا الناس على العقيــدة ، انتظارا لحكم الله بين الفريقين : « وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » .. فيقرر مبدأ حرية الاعتقاد فى الأرض ، وترك الحكم لله فى موضوع العقيدة .

ولكن الذين استكبروا لا يرضيهم أن يدعوهم أحد إلى هذه المثل الخلقية والنفسية الرفيعة. إنما هو منطق القوة المادية الغليظة : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه: لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا » . هكذا فى قسوة وغلظة .

إلا أن قوة العقيدة فى الله لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهــديد والوعيــد . فإذا شعيب يستنكر تلك القولة الفــاجرة : « قال : أو لو كنا كارهين ؟ » تجــبروننا على ما نكره من عقيدة ، ولا تحترمون حرية الاعتقاد ، وهى من أخص خصائص الضمير ؟ فلا إذن ولن

ترتد إلى عقيدة الشرك ، فنفترى على الله الكذب : « قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها » فهى شر خلصنا منه الله ، وبلية نجانا منها : « وما يكون لنا أن نعود فيها » فهو مستنكر أصلا ومستبعد أساسا . . ولكن شعيبا النبي يفوض الأمر لله مع ثقته فى أنه لن يعود هو والمؤمنون إلى ملة الكفر أبدا . يفوض الأمر لله تأدبا فى حقه ، فلا يجزم بمشيئته هو بل يدع الأمر له ، فقد يكون فى علمه مايخفى على البشر من مخبآت : « إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما » .

ثم يدع شعيب القوم وتهديدهم ووعيدهم ، ويتوجه إلى الله بالاعتماد والدعاء : « على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين » . .

عندئذ يتوجه الكفار من قومه إلى المؤمنين الذين اتبعوا الرسول ، يخوفونهم ويهددونهم ليفتنوهم عن دينهم : « وقال الملأ الذين كفروا من قومه : لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذاً لخاسرون » . .

وعندئذ يعاجلهم السياق بالنكال : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » . . الرجفة والجثوم جزاء التهديد والاعتداء وبسط الأيدى بالأذى والفتنة عن الدين . .

ويعقب على مصرعهم ، بالرد على قولتهم: إن من يتبع شعيبا خاسر ، فيقرر على سبيل التهكم أن الخسران لم يكن من نصيب من اتبع شعيبا . إنما كان من نصيب قوم آخرين : « الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين » . بهذا التكرار زيادة فى التقرير . كأن لم يغنوا فيها ، فلا ظل لهم فيها ولا أثر . كانوا هم الخاسرين . لا أولئك الذين هددوهم بهذا المصير . .

ويطوى صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال ، من رسولهم وهو أخوهم الذى افترق طريقه وطريقهم ، فلم يعد يأسى على مصيرهم الأليم : « فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم . فكيف آسى على قوم كافرين ؟ » .

وهكذا تجرى سنة الله لا تتخلف ، وتمضى مشيئته لا تتوقف . وهكذا تتحقق النذر . فمن شاء فليعتبر . وهكذا يتناسق القصص مع موضوع السورة الأول : « كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » . .

انتهى الجزء الثامن . ويليه الجزء التاسع مبدوءا
بقوله تعالى : « قال الملأ الذى استكبروا » .

كتب للمؤلف

الكتاب	الطبعة	الناشر
١ ـ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية
٢ ـ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة ثالثة)	دار الإخوان للطباعة والصحافة
٣ ـ معركة الإسلام والرأسمالية	(« ثانية)	« « « «
٤ ـ السلام العالمى والإسلام	(« أولى)	مكتبة وهبة شارع إبراهيم بعابدين
٥ ـ التصوير الفنى فى القرآن	(« ثالثة)	دار المعارف
٦ ـ مشاهد القيامة فى القرآن	(« ثانية)	« «
٧ ـ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	(« أولى)	دار الفكر العربى
٨ ـ أشواك	(« «)	دار سعد بالفجالة
٩ ـ طفل من القرية	(« «)	لجنة النشر للجامعيين
١٠ ـ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	« « «
١١ ـ القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	« « «
١٢ ـ الشاطئ المجهول	(شعر)	... نفد
١٣ ـ كتب وشخصيات	(نقد)	... «
١٤ ـ مهمة الشاعر فى الحياة	(«)	... «
١٥ ـ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(«)	... «
١٦ ـ المدينة المسحورة	(قصة)	... «

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى (٢) أمريكا التى رأيت

(٣) حلم الفجر (شعر) (٤) قافلة الرقيق (شعر)

